
اختراقات الهوى والتهلكة
نزوات روائية
إدوارد الخراط

اختراقات الهوى والتهلكة

(نزوات روائية)

إدوار ا   راط

" In the foul rags – and – bone shop of the heart"

W.B. Yeats

" في دكان الخردة والروبابيكيا الفاحشة التي تملأ القلب".

وليام بتلر ييتس

الفهرس

النزوة الأولى
إثم متكرر قديم

كان فريد الأطرش ينوح بشجنه المصنوع على شاشة التليفزيون.

وكنت محموماً أخوض غمار هذيان شتوي عنيد.

شفتا المطرب الذي مات من زمان مازالتا شـفرتين لا لحم فيهما وتسيلان بميوعة عذبة، وهو يخرج لنا أحشاء قلبه المفرغ في دوزنة العود وشجى الكمنجة المتهافت.

أحبابنا يا عين

راحوا وفاتونا

كنت أراه، أحياناً نادرة جداً، أحييه في السلّم النظيـف الهادئ، في بيت شارع فرنسا. أو يدخل ليسـلم وأنـا عنـد صديقي أنطوان وأختيه أوديت وآرليـت شـكرا . كانـت رائحة الطبيخ الشامي – الكبيبة أو كباب الحلّة أو الحمـص بالطحينة – تفوح منه، ومن البيت كلّه، رغم الكولونيا الثقيلة، والبريانتين اللامع وأناقة الكرافتة المعقودة على سِنْجة عشرة والحفاظة العمومية التي تمشي بشياكة موظّفين على قد حالهم،

في شركات مثل كوبانية النـور ليبـون، أو شـركة المـاء والصودا. هم دون جوانات قشرة، عِيرة، ليس في دخيلـتهم إلا حسبة القرش والمليم، نقداً وعاطفة على السـواء. لعـب البوكر حتى الصبح ليلة السبت، الرقص مع البنت – أي بنت – في النادي اليوناني – ولـيس فـي النـادي السـوري – أو كازينو الأمبسادير.

خرج إلي جورج من الشاشة المهتزة بخطوط النـور الملونة.

هل كان اسمه جورج، هنري، جوزيف، أم ماذا؟

بعد أربعين سنة، كان معي، يغنّي.

الخالق الناطق فريـد الأطـرش، قامتـه القصـيرة، والبنطلون الواسع أبو حمالات المشحوط عالياً على وسـطه الممتلئ، جاكتته الضيقة، والنظرة الرازحة بحسابات حسية.

وخرجت معه أوديت، بعد أربعين عاماً.

كأنني رجعت إلى بعد ظُهريـات الشـتاء المتـأخرة، أصحو من وخم النومة الدافئة في بيت شارع ابـن زهـر، وأنزل – كما أنزل كلّ يوم تقريباً – آخذ ترام راغب باشـا الذي يتهادى لامعاً ونصف فارغ لغاية المنشية. ثمَ أمشـي،

محاذراً أن يترب حذائي المصقول بالورنيش بعناية، مازالت له رائحة خفيفة، وأنسرب في الشوارع الجانبية الواسعة، بعد شركة بيع المصـنوعات وقبـل زنقـة السـتات بالضـبط، حتى مدخل البيت الذي أجده منيـراً بلمبـة كبيـرة خافتـة، والزرع اليانع، على ناصيتي السلم.

أوديت تفتح لي الباب، هي التي تفتح دائمـاً تقريبـاً، كأنها تعرف وقع خطاي على الدرج، أو تنتظرني فـي هـذا الموعد بالذات. تعطيني يدها الصغيرة الحاذقـة الأصـابع، وتضغط على يدي بنصف ابتسامة في عينيهـا الصـغيرتين الحادتين. فقط. هذا كلّ التواطؤ الذي بيننا، دون إفصاح.

كان جورج، إذن (سوف أُسميه جورج) عندما يـدخل ينظر إلي نظرة متآمر، ساكتة. كأنه يقول: نحن نفهم أحـدنا الآخر، أليس كذلك؟

ما أقل حصاد الحسابات الحسية الذي جنيتُه مـن كـلّ هذه الحكاية، مع ذلك.

وما كان أكثر التحوط والعناية بألا أتورط.

لقاءات، في سياق أفلام جان كوكتو وجان ماريه، فـي عتمة سينما فؤاد، يدي على حجرها، أو الشاي فـي حديقـة

التريانون الصغير، أو كأس نبيذ أبيض في برج الاسكارابيه الذي تحول الآن إلى برج السرايا، على حافّة غواية البحـر الزرقاء الضاربة، وهي ساجية، تومض في آخر الظهر.

فقط.

لم أعرف أبداً طعم الشفتين الحساستين الرقيقتين والفم الذي لم يقل لي أبداً كلمة حب.

لم أعدها قط بشيء من ناحيتي، ولم أُلمِّح، حتى، إلـى أكثر من هذه الصداقة الغريبة التي لا هي غرامية ولا هـي بريئة تماماً والتي كنا نداريها ونساتر بها، مع ذلك.

حبيب العمر حبيتك

وضيعت معاك عمري.

ما وجهكِ؟ من أنتِ؟

تنهضين من القبر، قبر الذاكرة أم القبـر الأم الـرءوم النهمة إلى تُؤوي كلّ أبنائها وبناتها في حضنها الرطيب؟

رأسها الدقيق مهدل الجلد قليلاً مليء بالغضون، رأس خفّاش، مدور، بعينين لا يغمض جفناهما أبداً.

أما جسمها الذي لم أعرف طلاوته قطّ فهو الآن بـين ساقي، ناعماً، ناتيء الثـديين، صـلب المكسـر. عشـتار

الإسكندرانية رخامية القوام قد غرزت فمها تحـت جلـدي، تمتص دمي.

أضرب في التيه والهذاء، أكثر من أربعـين خمسـين سنة، تقفين إلى سريري الآن، لا تتكلمين، وغناء المطـرب الجار الموظف الشامي يلفّني بطواياه، مازال يرثـي ضـياع العمر.

أنتِ الآن معي، في سوق الطويلة، بين ضجيج بيروت ونداءاتها. فجأة أجد نفسي أمام هذه السيدة التي تجعد وجهها، ضربته الأيام، انحنت القامة الممشوقة، الرشـاقة أصـبحت جفافاً، لم يعد من أثر في ملابسها لصناعة الأناقة التي كانت – ولعلها مازالت – تكسب منها عيشـها، حـروف كتابـةٍ لم تكتمل قطّ، بالإبرة والخيط ومكنة سنجر التي طالما سمعت وشيشها الرتيب في بيت المنشية الصغيرة.

عيناها مسددتان إلي، بلا صوت، بلا كلمة.

أقف، جامداً غير قادر على حركة أو على صوت، في زحمة الناس، صريع نظرة متهمة خرساء. مطوح بـي فـي بيداء موحشة، من ألم الخذلان.

مازالت معي، نَفَسها قوي على وجهـي. حضـورها مدمر، وهي على رأس سريري، لا تـتكلم، ولا تنصـرف. وجهها شبكة من الخطوط الدقيقة، فمها كأنه قد أغلـق إلـى الأبد، وسقط. وكانت الوطاويط ترف حواليها، تعلو وتنساب وتنقض بسرعة خاطفة، تهف علي قريبـة أسـمع احتكـاك أجنحتها، وتخفى.

وجدت العرق يتفصد بارداً، وقلبي ينطبق.

لم أطق الرقاد، نهضت والغثيان يأخذ بخناقي، ويرتفع في حلقـي. أحسسـت الـدم بطيئـاً فـي جسـمي كلّـه، لا يكاد ينبض. أجاهد القيء الذي لا يجيء.

الهواجس القديمة الماثلة أنا فريستها طيعةً ومضحاة.

صرختي بالليل أسمعها أنا وحدي. أسـمعها. مازلـت أسمعها تملأ سمائي الليلية المطبقة.

مركب الفجر مشدود الشراع، واقف على ثبج الموج، ينشد مرساه بلا وصول.

أين نقطة انبثاق الشمس من حد سكين الأفق المسنون، ملبداً بالاحمرار.

أتعثر وأقع بين حجارة مرمية حوالي على فراشي الذي تندى بأشواقي غير المروية. أحلام قديمة مكسرة، الكتابـات عليها قد امحت.

أريد أن أطلقها، أن أطلق هذه الصـرخة فـي الليـل، الصرخة الطويلة الممتدة حتى الآخر عاليـة حتـى أطبـاق السـماء العلـى، أطلقهـا بـلا حسـاب ولا تحـوط، بلا انتهاء، أعلى وأطول ما تكون صرخة بلا قيود، لا تنتهي، ملء الحلق، ملء الصدر، ملء الوجود الساقط تحتها أنقاضاً.

أعرف أنني لو أطلقتها، لو أنها دوت بالفعل في الليل، لـو سـمحت لأحـد – أي أحـد – غيـري أن يسـمعها، فلن تتوقف أبداً، سترتفع كالسـيل، صـرختي فـي الليـل، وتأخذ معها كلّ الحواجز والضوابط والسدود، سوف أفقد فيها كلّ شيء وسوف أترك عندها كلّ شـيء، سـوف أضـرب بجناحي نسر مكسور في فجر حرية الجنون التي بلا كباح.

أحبسها إذن أكتم نارها. سد أذنيك عنها.

راقصة مشهورة تملـك طـائرة خاصـة، اعتـادت أن تذهب إلى باريس لليلةٍ واحدة تزور خلالها الكوافير لعمل بديكير، ومانيكير.

عندما وصلت إلى مطار النزهة بإسكندرية نصف ساعة قبل الموعد، لم أجد أحداً، لا موظف من شركة الطيران، لا طائرة، لا أحد. جاء جندي حراسة: "الطيران اتلغى يا بيه!". ثم جاء أفندي ينتعل شبشباً زنوبة:"إجراءات أمن لمدة أسبوع بس!"

وتم القبض على محمد المهدي عيسى نصر ٣٨ سنة وهو يعرض ابنه محمود المهدي ٣ سنوات للبيع مقابل ٢٠ ألف جنيه.

وقضت محكمة بولاق الدكرور بحبس سالي طالب الطب الذي تحول إلى فتاة، هي وزوجها، بالحبس شهراً مع الشغل لاعتدائهما على جارهما بالضرب.

رفع عدد من مودعي شركة والي لتوظيف الأموال دعوى قضائية على وزير الداخلية ومأمور قسم العجوزة بتهمة تسهيل هروب صاحب الشركة اللواء والي، إلى خارج البلاد. كان اللواء قد استولى فقط على ٤ ملايين دولار من ٣٠٠ مودع حرروا ثلاثمائة محضر شيك بدون رصيد في نيابة العجوزة.

قوات الأمن بالدقهلية ألقت القبض على ٦٦٠٥ من الهاربين من تنفيذ الأحكام، منهم جنايات ٣٨٢٠، فقط في بحيرة المنزلة.

وتوفّي يوم ١٧ أبريل ١٩٩١ في باريس رجل الأعمال عبد اللطيف أبو رجيلة زوج السيدة زيليندا اسكولاتشي بإيطاليا وحفيد المرحوم متولي أبو رجيلة وحسان باشا عبد المنعم.

وأمرت نيابة الجمالية بإحالة أحمد حسن متولي ٥٢ سنة إلى محكمة الجنايات لأنه قام بحرق سيد متولي ابنه الأكبر، ١٤ سنة، لسرقته ٢٠ جنيهاً لشراء أفيون.

وأحصت منظمات الإغاثة الدولية ما بين ثمانية إلى تسعة ملايين سوداني يعانون المجاعة. ولم تُحصِ كم منهم مات جوعاً.

عزيزي أحمد

لم أرسل لك قطّ هذه الرسالة، هل وصلتك؟

ليست هناك أبداً نهايات.

ألم نصل بعد إلى هذا اليقين اللايقين؟ أم أن هناك فينا، دائماً ذلك النزوع الرومانتيكي نحو الفردوس الموعود (أو

المفقود) أو حتى نفحة منه، ترد الروح الصدي، يراوغنا دائماً، ونراوغه. وحتى وهم الإنجاز على ندرته ومشقّته التي لا تطاق، حتى هذا ليس فيه إلا التعرض للعراء.

فهل نحن نشيخ؟ أم هي مراهقة لا برء منها نسميها أحياناً براءة وبكارة متصلة لكي نعطيها نبلاً مزعوماً؟

كلامك عن الغربة التي تحملها معك، لا في حقيبتك بل بين جنبيك، يؤرث جرحاً قديماً لا يندمل. هذا يجري مجرى الطبع الآن.

ولكن ماذا بعد؟ هل علينا إلا أن نأخذ الثور من قرنيه – كما يقال – حتى لا تطأنا – نهائياً – حوافره؟

قد وطأنا الميناتور حقاً، وغَرزنا، بعمق، غُصنا تحت ثقله في أرض الوطن الوحيد الذي نعرفه، وطن الغربة.

السحب البيضاء الخفيفة، ممزقة، قطع من الجسد الأنثوي الذي أعرفه، هوائية، تدخل من نافذتك لتخرج إلى سماء منمنمة بالشجر والزروع. النافذة مفتوحة، ومعلقة، ليس لها إلا إطار خشبي. لا جدار. لا أرض. لا سقف. كأنها وطنك الوحيد، غربتك النهائية.

ومع ذلك فإن هذه الأرض وحدها – أرض كيمـي – هي وطنك الباقي.

جاءوا إلي من وراء أربعين خمسين سـنة، شـيوخ؟ لا أعرفهم، اغتصبوا أسماء أصدقاء الصبا والشباب، تلبسـوا جسومهم وملابسهم وانتحلـوا تـاريخهم القـديم؛ مهتـزين، متهدمين، يتباهون – بشكل مثير للغضب – بإنجازات حياتهم المسكينة. إنهم تزوجوا وخلفوا واشتروا شققاً لبناتهم ورتّبـوا وظائف مربحة لأبنائهم، إنهم وصلوا إلى درجة مدير عـام وإن رصيدهم في البنك لا بأس به وإنهم يقرءون"الأهـرام". عيونهم صدئة ليست فيها نيـران الاستبسـال والاستشـهاد القديمة. كم منهم ضاع مني؟ هل إذا لقيت أنطـوان فـي أي شـارع مـن شـوارع الحيـاة المتبقّيـة، أعرفـه؟ إن كان ما يزال من أهل هذه الفانية الغرور؟ شوقي إليـه – ومازال فتياً في ذاكرتي، في الثلاثين مـن عمـره – يعـدل أشواقي إلى أولئك الذين اغتصبهم غربـاء وضـعوا علـى وجوههم أقنعة محكمة الإتقان درءاً لجـريمتهم. لكـنهم لـم يخدعوني لحظة واحدة. عرفت على الفور، وأنا آخذهم بـين ذراعي، أنهم ليسوا هم، إن هؤلاء الذين جاءوا لصوص، هم

الذين أطفئوا النيران التي كان من شأنها ألا تنطفـيء قـطّ، العنقاء مازالت رماداً لم تفرد جناحيها بوسع السـماء، بعـد، لم ترفرف بهما فتميد الجبال وتتمايل الصروح المشيدة فـي المعادي والدقّي وزيزينيا والمعمورة، لم تضرب بأجنحتهـا فتنقض البروج على الخطافين والنهابين والغشاشـين، لـيس بعد، ليس بعد.

فمتى؟ متى؟

سحابة سوداء تعبر احمرار السماء الممزقة وعناقيـد الثمار الحيوانية العطشى للدماء معلقة مقلوبة بمخالبها الحادة، أغشية الأجنحة المعقوفة سوداء مشدودة مرهقة تتذبذب مـع أهوائي وشطحات روحي، رابضة على حواشـيها الذهبيـة الداكنة.

أما أخته، جورج، فقد أنسيت اسمها تماماً. أذكر فقـط المشية المتقصعة والكعب العـالي جـداً دائمـاً والحواجـب المحرقصة دائماً والعينين اللتين تنـدب فيهمـا رصاصـة. وجهها نبيذي النكهة وشديد النعومة معنياً به عناية كاملة، هي أيضاً كأنما تسألني، دون كلمة، ماذا تنوي أن تفعل، يعنـي؟ إلحاحها في السؤال، دون كلمة، بعينيها فقط، اقتحام حقيقي.

كأن كل شعرة في جسمها محفوفة، بالحلاوة.

نعومتها لا تحتمل.

هل دهن جسمها، كلّه، وهي نازلة من بطن أمها، بـدم وطواط صغير منتزع من بين جناحي أمه، جلـده مصـقول ولزج وأملط تماماً، يصأى بوصوصة واهنة، مذبوح بسـكين حادة على نور شمعة واحدة وبخُور الجاوي والدار صـيني والصندل. فلن ينبت لها الشعر أبداً. تظلّ ملسـاء كالرخـام الحار اللِدن.

حجارة أحلامي إذن مازالت مرمية علـى سـريري، أنقاض العمر، وعلى أرضية غرفة نـومي، أتعثـر فيهـا، وتجرح أصابع قدمي الحافيتين، وأنا أعود، بعد أن تقيـأت، أخيراً، في الحمام.

أحس نفسي مستنفداً، هالكاً.

ألتقط أنفاسي بمشقة.

حجارة من معابد كوم أمبو وأبيدوس ودندرة، منقوشة منحوتة بالقلم العتيق. حيات وأمواج ونسـور وحـدأ تثـب خارجة من الحجارة تدور حولي وتملأ علي الغرفة، أضرب الهــواء بــذراعي، أطردهــا، أصــرخ بــلا صــوت

ولا تنزاح بل تتجمع في سحب كثيفة تلفّني وترتفع، سـوداء تئز وتطن وتتموج بثقل تخترق سقف غرفة نومي فجأة ثـم تعود تهبط تنقض علي.

أوقدتُ النار في حفرة في أرضـية الغرفـة وصـعد الدخان إلى السقف وترك غييمات جافّة من الهباب الأسـود المتفتّت ولكن السحابة الحية المرفرفة لم تنقشع لبـدت فقـط فوق رأسي لا تنجاب.

هل نجاتي وملاذي فقط هناك على شط البحر الكبيـر تحت هفهفة أشجار الدوم الرشيقة عريقة القوام تحت عينـي أوزير الحانيتين، أو أنني لا أعرف أن أقرأ رسالتها؟

أستيقظنا من نومة الفجر علـى طقطقـة الرصـاص وهبدات المدافع في السماء يتردد صداها العميق بين الجبـل القريب وأنفاس البحر البليلة.

كانت الستارة بيضاء، نصف شفافة، على نافذة غرفتنا المحجوزة ليلة واحدة في"أطلس"، ملفوفة بـدبابيس إبـرة لا تترك فجوة بين فلقتيها يمكن أن يجرحنا منها أحد.

وكان جسمها البرونـزي الحـار، عاريـاً، لا معـاً من ندى الشهوة والغيبة، بين ذراعي، وتحت ساقي.

وكانت فوضى الأخبار في صحف شارع الحمرا فاغرة الأفواه صارخة بصمت مثل جياد الجيرنيكا ضرب الجنون وشطح الحب في شوارع العالم عربدة العشق العقيم في سرائر غريبة وعلى سرر مصنوعة ومهوشة وأجنبية وحميمة.

وعشق النعمة الخصيب؟ هل راعيت عهده وعملت بوعده؟

كلّ عشق غير كامل، مهما اكتمل، ومهما كانت لحظته هي الأبد فهو غير قائم في الأبد. كلّ عشق خيانة محتومة. ذلك لا يعزيني ولا يريحني ولا شيء.

أما التمساح فقد كان مرمياً على جدار شرفة بيتنا في كليوباترا الحمامات. هائل الأنحاء وحراشيفه جارحة وصلبة، لا يتحرك. ذيله الضخم، مشحوناً بقوة منذرة، ملقى به، تحت، على بلاط الشرفة، مهدداً في جموده، وإن كانت عيناه الضيقتان ليستا علي مباشرة، بل على النخلة الطويلة الوحيدة في الحديقة الدقيقة التي لا تتجاوز أمتاراً قليلة بين سور حديدي عالٍ مشغول وباب البيت الذي أمامنا، عتيقاً ثقيل الشكل.

أين أنت الآن. أم أين أنا؟ هل ضربت أيـدي الليـالي بيننا؟ حقاً؟ هو الحلم يبدو كطفل غفا، على لجة البحر عنـد الشفق. ضحكت، وسألت نفسي: هل هـو ضـحك كالبكـا؟ أضحك، أو أبكي، كالأُوتومات، مبرمجاً، متوقّعاً، أكاد أسمع تكة التروس الداخلية. على مضجع النور بين الورود، ويبدو كطير لاح ثم اختفى، ويبدو شراعاً أبيض، قد هفـا، كأنغـام ناي بأفق بعيد. ها ها! هو الحلم هو العمر هو الحـب هـو الشوق هو الألم أليست يداي صفراً، خاويتين؟ فمـاذا كنـت تريد ويم كنت تريد أن تملأ اليدين؟

رمينا معاً قروش الأماني – ليرات معدنية على الحقيقة – في ماء النافورة. كنا بعد منتصف الليل وكانت الأضـواء لنا وحدنا، أحيط خصرها القوي بساعدي ومن الناحية البعيدة أمسك بيدها، يدها الرخصة المليئة. لم نكن نعـرف بعـد أن الحب قد قام. كنا ضربنا في شوارع المدينة النائمـة التـي تيقظت لنا وحدنا. على غير وجهة. لا تقودنا إلا خطى حـب لم يعرف بعد أنه هناك، وأنه سوف ينتزع من بـين أجنحـة سوداء. صعدنا ربوات أسفلت ندية خاويـة وجرينـا أمـام سفعات ريح باردة قليلاً منعشة ومحيِيـة وعبرنـا سـاحات

شاسعة ونفذنا من تحت بوابات رومانية عريقة وحدقت إلينـا تماثيلهم فاغرة العينين. مضينا، ولم نرجع قطّ، حتى الآن. ما من شيء يرجع قطّ، أليس كذلك؟ أليست هذه حكمة القـدماء، دائمة الجدة. فهل انقضى شيء؟ التماثيل غسلت بماء النيـل في غرفة نومي، لكنها لم تعد كما كانت، عند ساعة تخلقهـا، أو لم تتغير قطّ، صانتها من الزمن يداي.

"بحر العشق ليس له شطآن"

صدقت يا سيدي الفرودسي.

وحتى إذا لم تكن قد صدقت....

ماريتي رامتي نعمتي التي لم تكن لي قطّ وما كان لي قطّ امرأة أقرب منها وألصق وأعمق عضوية إلي.

جيبتها كانت تهب بها أنفاس الريح الليليـة وحـذاؤها يبدو، في نور المصابيح القوية العالية، متربأً من غير تراب، جلده غالي الشكل ومرناً، قد التصق بجلد قدميها الغض كأنه ينمو منها أو جزء لا ينفصل عنها.

كانت النافورة مفاجئة، وكان عشقنا مفاجئاً.

كلاهما انطلق – كأنمـا بالصـدفة؟ أم بحكـم قـدر لا يرد؟ - من قمقمٍ ألِفي، ليبسـط جناحيـه علـى الـروح، ويستولي عليها.

الحجارة مازالت تسقط من سحاب متلبد.

النزوة الثانية

الأشجار السوداء

سألت نفسي: هل ستأتي فعلاً في الميعاد؟

بشيء من اللهفة ولكن من غير مبالاة في الحقيقة، قلت لنفسي.

كان المطر يسقط رذاذاً حاراً، كأنـه غشـاء مخـرم شفّاف، يلفّ كلّ شيء: الأشجار السوداء والبيوت الخشـبية التي تتصاعد عليها دغلات نباتية داكنة الخضـرة، غضـرة وقوية العضلات، تحتضنها بعنف، وأعمدة النور الكهربيـة، والسيارات التي عجلاتها تطس رشاش الماء الخفيف من على الأسفلت.

شجرة نخل سلطاني، وحيدة، سامقة، مدورة السـعف. تحت النور المشع من الكرة البيضاء التـي تحـوم حولهـا غييمات من الهاموش الدقيق المتموج، محتمياً من قطـرات المطر الدقيقة المنسدلة برقّة.

ساق النخلة الممشوقة ترتسـم قاطعـة بـإزاء حـائط رخامي أشهب منقوش منحوت رسومات غائرة فـي جسـد المرمر، وناتئة منه.

بيضاء مدملجة ملساء ممتدة إلى أعلى، وحدها، برشاقة لا تصدق.

عندما دخلت، وجدت بار"سفنكس" ضيقاً وشديد الدفء، ومعتماً، الأضواء المحمرة الملبدة تسقط من عيون صـغيرة مصقولة جداً.

وكان البحارة صاخبين أمام أقداح البيرة العالية التـي تفيض برغوتها البيضاء على جـدران زجاجهـا الرطـب، والنساء معهم، فساتينهن المشقوقة حتى منتصف الفخذ لامعة النسيج.

أما نسيج السيقان الأنثوية فكان يبـدو خمريـاً شـديد النعومة وكأنه زيتي. والرشاقة الجسدية كاملة.

كان المطر يدقّ بوشيش متصل ومنتظم الطَرقات على حصـير منسـدل يحجـب الشـرفات الحجريـة العاليـة، على أسفلت الشارع، على أسقف السيارات المارقة بسرعة.

ومن صدمة سقوط ستار المطر الشفيف تصـعد مـن سطح الحصير والأسفلت والسيارات سـحابة مـن البخـار الخفيف لا تكاد ترى، تتطاير شرائح هفهافة من البلل والحر.

للمياه خرير مغرد في الشقوق المفتوحـة، المحفـورة لتصريف المجاري، تحت الأرصفة مباشرة، لا أكاد أشم منها رائحة العطن.

انتظرت طويلاً، للأبد،في البار، فـي زحمـة التعلّـل واليأس، تحيط بي جماعات الباحثين عن السكْر، في عطـش الشهوة، في الضجة المكتومة المصممة تحيق بهـا حـرارة المطر في الخارج، لا يهن، قاسياً فـي اسـتمراره. عربـدة الحواس تسخّنها أبخرة البوربون والبيرة والجن.

لم تأتِ.

هل أتيتِ؟

خرجت من خنقة البار، وكان يرفرف في سماء الليـل رخّ الجارودا بجسمه البشري الجسـيم العـاري وجناحيـه الهائلين المحمرين يهتزان من أقصى الأفق إلى أقصاه فـوق المدينة التي تومض مصابيحها الكهربية وتغمض مرة بعـد

مرة بين الأشجار الكثيفة، رأسه المخروطي ممدود المنقـار ينقض علي، مرة بعد مرة، لا يصل أبداً، ولا يتوقف.

جارودا – نخبت، الذكر المنتصب أنثى العقاب معـاً، رئيس الطيور نسر البشر سارق جوهرة المحاياة ابن النجوم البرونزي الجلد مطية فيشنا كأن جسمه الحجري المحـروق اللون حي باللّذة، هازم الصواعق، وجهه وجناحـاه وسـاقاه تلمع كلّها ذهبية في السحاب المنير الليلي، وهو يخطف فـي انسياب الزئبق.

يأوي إلى شجرة الكافور الكبيرة الوارفة لا تنبثق عـن الأرض منها إلا اثنتان واحدة فـي طـرف شـبه جزيـرة صندابوره التي أطرق الآن طرقاتها والثانية في قلب مدينـة نخنت التي اسمها الكاب في طمي بلادي السخن: أُم رع عين الشمس اليمنى ربـة الصـعيد صـاحبة القـوس والسـهام صحراوية اللون تضرب إلى البياض أنـتِ التـي تـراعين الموتى وتجعلين منهم أشياء من الحسن والجمـال عيـونهم كرات من النور.

ظلال الباجودات في عتمة أول الليل تتخايل لي، مـن غير دعوة، بغرابة كاملة.

أصادف بعض المارة، صغار الجسوم، كلّهم أسـرار، متألقي العيون في العتمة في بيجاماتهم المميزة، كانوا – على قلّة قدهم – مهددين بشكل ما.

ولم تكن دقات المطر الهين تضـايقني، بـل أرحـب بوقعها على رأسي، على قماش البدلة الصيفية بنصف الكـم، وعلى ذراعي المبتلّتين قليلاً.

كان الشارع الخاوي العريض يدس في نفسي شيئاً من توجس، بأشجار الصندل والأبنوس والفلفل والرمان، ضخمة ثقيلة الأغصان، تنزل منها قطرات مدورة من الماء تطـس الرصيف بصوت سبلاشْ واضح الانفجار.

كأنما أحس أن هناك من تمشي معـي، فـي وحشـة الشارع المقفر، حضور أنثوي يحوطني ويحرسني ويتربص بي ويثير كوامن شهوتي. لا أكاد أجرؤ أن أتلفـت ورائـي، ولا أريد أن أسارع من خطوي، كأنني أتقي محظوراً أهفـو إليه أو أطايب أحداً، لا أستنفر شيئاً.

حتى أراحني حس الجفاف والنور الهادئ في مـدخل المبنى، نصفه بالحجر الأبيض الضـخم ونصـفه بالخشـب

العتيق المدهون بالأخضر، قـديم ومشـقق، صـوت أزيـز درجات السلّم الخشبي مطَمِئن، بيتي، مأنوس.

سارعت إلى الغرفة رقم ٥ التي كان يشـاركني فيهـا شنودة وإبراهيم. الواحد منا يـدفع ١٥ دولاراً فـي الليلـة. كنا راجعين من باندونج، وكانت طلقات النار ودقات المدافع تدوي بالليل الحار الثقيل، عبر الجبال الصامتة، بعد ميعـاد حظر التجولّ.

غيرت، ودخلت الحمام، وفتحت الدوش وأنا أقف فـي داخل حائط دائر مبني بالأسمنت حتـى ارتفـاع منتصـف الجسم، الأرض زلقة تحت قدمي فأُمسك بالحـائط النصـفي المدور طول الوقت، الماء ينزل في دفقات متناوبة متلاحقة، سخناً لاسعاً كثيفاً ثم رشّات من رذاذ بارد خفيف لا أسـتطيع أن أتحكم في اندفاعه وتراخيه.

نشفت جسمي بفوطة غير أورثوذكسية النظافة ناصـلة الوبرة قليلاً.

وجدتهم في الشرفة الخشبية العريضة القائمـة علـى أعمدة حجرية مربعة تلتفّ عليها أغصان نباتـات متسـلقة متورمة بالخضرة والغضارة الليلية الداكنة: شنودة وإبـراهيم

ورءوف ونبيل، حول المائدة الخشبية الواسـعة المسـتديرة، يستعدون لجلسة تحضير الأرواح.

كان إبراهيم يريد أن يتحدث إلى روح أبيه الصـراف الصعيدي الذي مات من سنين، قال لي إنّه كان يجوب القرى والنجوع المتاخمة لمنفلوط، حتّى مماته، يلم ضريبة الحكومة على الأرض، بالعبايـة والجلبـاب الصـعيدي ذي الحـزام الحريري العريض على بطنه وقد دس فيـه دوايـة الحبـر وأقلام البسط، وفي عبه الكيس الميري الذي يلفّه بمنديل كبير حتى لا تخشخش الجنيهات الذهب، والريالات الفضة الكبيرة. قلت له: أبي، تمام، في عز شبابه، لما كان في أخميم.

طلبوا مني أن أنضم إليهم.

كان بنسيون"لويد سيتي" قريباً من مبنى رافلز، وحـي السينمات والبارات، ومعبد شيتيار الهندوكي، والبد البـوذي الكبير. ولكن ما إن أدخل طريق ستيفنسون حتّى يحلّ سكون بري موحش، كأنني أمس مشارف الغيب، أمس حافّة جسم ما هو وراء الكون نفسه.

جارودا نِخْيِت الذكر الأنثى، أقنومان في جوهر واحد، في المخلب الأول المحجون ثعابين طويلة مصـقولة الجلـد

تتلوى وفي المخلب الآخر المحجون عنخ الأبد ومعت العدالة وماسات النجوم الزاهرة حول عمود اللوتس المنصوب.

رخّ جارودا نِخْيِت يرقبني بعينيه الجاحظتين يضربني، مرة بعد مرة، دون هوادة، لا أسقط ولا أفيق.

لم أمانع أن أجلس معهم، من باب الفضول والتطلـع، قالوا نمسك بأيدي أحدنا الآخر، فلـم أمـانع، وإن كنـت لا أصدق الحكاية كلّها. وعندما طلبوا مني أن أصـلي معهـم "أبانا الذي في السماوات..." رفضت، علـى سـبيل المبـدأ، أيامها كنت طهراني اللاعقيدة، لا أقبل أن أجامل.

كان شنودة هو الوسيط، وبعد فترة أغمـض عينيـه، وقال إن الروح جاءت لكنها ترفض الكلام معنا، لأن معنـا من هو غير مؤمن.

قلت في نفسي الإيمان لا علاقة له. لي إيمان في قلب اليأس والنكران. لي إيمان.

تفصد العرق البارد على وجه شنودة الطفلي الأسـمر، المتهدل الوجنتين من سمنته وتدويره، كانـت أنفاسـه الآن متلاحقة، قصيرة، وفيها زفير خشن، وكأنه يجاهد أن يقـول

شيئاً. تغير صوته، وندت عنه تمتمة ووحوحة وأنين مكتـوم يتناوب مع أنصاف كلمات مدغومة مطموسة المعالم.

ثم أفاق.

فشلت الجلسة.

ورأيت الأغصان المثقلة تسقط على الشرفة الخشـبية العتيقة، وتحيط بها ألف ذراع سوداء شائهة الشكل، متهدلـة باللحم الأخضر وفتولة العضل والـورق العـريض، سـاكناً بلا حراك، مبلولاً، ليس إلا حس وشيش المطر الذي لا يرى ولا ينقطع.

قال لي شنودة إن أمه، في الإسماعيلية، بعد العـدوان، اشترت ثعبان سمك لتعمل له الطاجن اللذيذ المحوج بالزعتر والريحان والفلفل الأخضر والجزر والبصل. عـادة، قـال، تأكل صوابعك وراه.

قال وضعت الثعبان السمك على بلاطة الحوض، كان حياً، مازال، يرتعد. جسمه المدور الأملـس يرتجـف فـي ذبذبات صغيرة مثل رقرقة الموج المتلاحقة تعبر تحت جلده المرقط الغض، لامعاً. وشكله فتي عضِل.

قال وسمت أمي باسم الصليب وجاءت بالسكّين الكبيرة، وهمت بأن تمسكه من رأسه، فإذا هو ينتفض بين يديها ويفتح فمه الدقيق، ويصدر عنه صوت أخن، مبحوح قليلاً، ولكنّه واضح تماماً، بالعربي: اعملي معروف يا ست. اعملي معروف، سيبيني عشان خاطر ربنا، سيبيني أرجع لأولادي عشان خاطر مجد يسوع دانا عندي ولاد عايز أربيهم. ثم سكت. أطبق فمه تماماً.

قال إنها نفضت يدها منه أولاً وهي تصرخ: يا يسوع!، ثم عقدت عزمها، وملأت سطلاً صغيراً بالماء، ووضعته فيه، فلبد فيه ساكناً لا يتحرك، ملفوفاً على نفسه بهدوء، حتى جاءت به للترعة الحلوة. فلما اقتربت من الترعة، وشم رائحة الماء، قفز بوثبة هائلة واحدة واسعة المدى، حطّت به في الماء، وغاص.

في ظهر ذلك اليوم، وبعد أن زرت البد الكبير وأخذت صورة مع بوذا الذهبي، وحودت على حفرة الثعابين العميقة ورأيتها تتلوى بوداعة حول الرجل النحيل الجافّ كأنها تمص منه عصير الحياة، أو تمده به، واشتريت حقيبة جلد تمساح من محلّ"سان كونج" في شارع الجسر الجنوبي، وأخذت

بيجاما صينية ساتان مطرزة برسـوم تنـانين ذهبيـة مـن محـل"أورورا" علـى طريـق الجسـر الشـمالي، كنـت قد عبرت الكوبري، ودعاني سكان المراكب من وسط زحمة عائلاتهم ونومهم وطبيخهم وبضائعهم من كلّ صنف ونـوع، بإنجليزيـة حـادة مشـروخة، أن أشـتري مـنهم شـروة سمك"برخص التراب"، أن أشتري أناناس طازة، أو مانجـة، أو باباي. شقّ لي أحدهم فاكهة منها مدورة حمـراء شـكلها مغري الطعم. طماطم وفلفل أخضر وجزر وبصل وصنوف من الخضر مثل الشبت أو البقدونس يانعة وشرسة: تعبـت، فجلست على المعقد الرخامي، أحسسته بارداً منعشاً تحتـي، في ظل النخلة السلطاني الوحيدة.

كان الجو حاراً وكهربي الجفاف. لـم يكـن المطـر قد جاء.

النخلة الوحيدة دعتني، بلا إمكانية للمقاومـة، بسـاقها الطويلة البيضاء الناعمة، وهي بـإزاء الجـدار المرمـري المنحوت، رخامه الأشهب ساطع في نور الظهر.

ظلال سعف النخلة مازالت تهفهف علي. ولكنني فجأة عرفت بيقين كامل أن النخلة ليست في موقعها، إنها اختفت.

قالت لي المرأة التي وجدتها فجأة، بجانبي، على الرخام المنعش المظلّل، بإنجليزية لها حفيف خافت:

- نهارك سعيد.

وتحدثنا.

قالت إن اسمها"ليما هي"، إنها من هنا، ليست غريبة. ومن أين أتيت؟ فلما قلت لها: من مصر، قالت لي إن أقاربها كثيرون في مصر.

وقالت:

- لا تندهش، هناك أشياء لا تخطر لك على باب.

كان فستانها الأصفر باهت الذهب ينشقّ – كعادتهن – عن ساق عاجية عارية حتى منتصف الفخذ، بدت لي حريرية الملمس. وبطنها مدور صغير، محبوك في الفستان، سلسال ليست فيه طية واحدة. راقني أن ثدييها ممتلئان، كاملان في تدويرهما، كرتين عظيمتين منحوتتين تنهضان

بنسيج الفستان الساتان، ياقته صلبة ترتفع بإحكام حتى تـدور بالعنق.

وكأنني لم أستطع، مهما حاولت، أن أتبـين قسـمات وجهها في عكس نور الظهر البـاهر، لكـن شـعرها كـان مستديراً على الرأس، خصلة مفروشة، ترمي بظلال هفهافـة على وجهها، وعلي - كلّي - في جلستي قريباً منهـا أكـاد أمسها وأُحس: ما أبعدها!

أجد نفسي دائماً على باب السر.

لا أقدر أن أنفذ منه.

لا أني أطرقه، لا أني.

لا أعرف كيف أدخل

لكي أفنى

سورة غوائل الشهوة مازالت مكتسحة.

ليست شهوة الجسد فقط، بل هي، وما وراءها.

لماذا ذكرت فجأة عناقيد خمائل النخل المتكاثفة علـى الليل، دغلاتها ملتفة بعضها على بعض، على طول الصعيد؟ نمنمات سعفها السوداء متقاربة الوشي تلفّ عـري السـماء

الصافية، سيقانها متراكبة على بعضها بعضاً في أنواع مـن العناق الوشيج الذي يوشك أن يكون شبقياً.

غابات الرؤى مسدودة المسالك

تحاصرني.

بلا رحمة.

بلا هوادة.

لكنها لم تأتِ إلى ميعادنا في بار"سفنكس" أم هل كـان اسمه – هذا البار –"سان فرانسيسكو"؟ في الشـارع الكبيـر على مقربة من شارع ستيفنسون. أم هل أتت؟

طوال الساعتين الأبديتين أللتين قضيتهما في انتظارها كنت أعرف، على نحو ما، أنها هناك. معي. أعرف، علـى نحوٍ ما، أن النخلة السلطاني الأملود ليست في موقعها.

لكنها لم تتجسد لي.

بعد ثمانية وعشرين عاماً، فـي ١٥ نـوفمبر ١٩٨٩ بالضـبط، قالـت أم عمـرو، وهـي سـيدة بورسـعيدية، لمصطفى السعيد من جريدة"الأهالي":

"بينما كنت أنشر الغسيل في البلكونة فوجئت بسـقوط فانلّة طفل، قذرة جداً، على رأسي. فألقيتهـا فـي الشـارع.

وإذا بها تختفي قبل أن تصل إلى الأرض. وإذا بجاكتّة طفل قذرة تسقط على رأسي. فشعرت بالخوف وأغلقت البلكونـة، فسمعت صوتاً على الأرض. ووجدت ثلاث قطع بنبوني ليس لها مثيل".

لم أصدق، بالطبع، شيئاً من ذلك.

قال لي صوتها الخافت، خشن الوشيش:

- يا قليل الإيمان، لماذا لا تصدق؟

فلم أقل إن إيماني راسخ وعميق، لأنه نكران.

"في الصباح، ثاني يوم، ذهبت إلـى الشـيخ صـلاح – وهو إمام أحد المساجد – فأمرني بأن أوقد ثلاث شمعات، وأحرق البخور، وأضع طبقاً من الحلـوى للعفاريـت. بعـد فترة، اختفى الشمع، والبخُور، والحلوى، ووجدت بدلاً منهـا ثلاث قطع بنبوني".

المرأة المخصِبة، ثـدياها عوسـجان مـثقلان بثمـار الرطَب، أحس أنفاسها علي، حانية ومعزية فـي حـر بـار "سان فرانسيسكو" المدخّن المزدحم بلغط البحارة الأمريكان.

حدائل سعفِها غير المرئية تلغي سقف البار وتندس من بين مصابيحه المكورة الملونة بـ الأحمر العجينـي والأزرق الملبد، ترتفع في السماء الليلية، تؤنسني.

ومع ذلك فلم أفلت من التفاف حيات الجسد حولي فـي داخل زروعه الحوشية وهيشه الخشـن وحلفائـه الشـائكة وبوصه الأخضر الجارح.

قالت أم عمرو:

"في نفس الليلة سمعت أصواتاً في الصالة. وخرجـت لأجد لعبة عمرو، دبابة بالبطارية، تتحرك وحدها، كلّ لعبـه الأخرى متناثرة في الصالة.

"وعندما حضر الشيخ صلاح وفتح المندل قـال إنهـم أطفال من الجن يريدون اللعب مع عمرو، وطلبوا المزيد من الحلوى والشمع والبخُور وأرزاً باللبن أيضاً".

كانت العناكب قد نسجت شباكها التي تبدو لي بالليـل بيضاء كثيفة الخيوط، في أركان الشرفة الخشبية، بين الحجر وألواح الخشب المشقوقة، من الداخل، وبين الحجر وطوايـا الشجر الغامضة، من الخارج.

"في اليوم التالي اختفى عمرو مـن علـى السـرير، فتملكني الرعب، وإذا بي أجده في بانيو الحمام، وحبات الماء تتساقط عليه. فوضعته على السرير وفتحت المصحف علـى سورة يس ووضعته فوق رأسه. تركته في حراسة المصحف واستيقظنا على بكائه في غرفة أخرى".

"هرعنا مرة أخرى إلى الشيخ صلاح فأعطانا حجابـاً وعزيمة لقراءتها ونحرق البخور ونطلب من خدام العزيمـة عدم تعرض العفاريت لنا بالشر. قال إنهم قوم منهم مؤمنون ولكنّهم عصاة".

"بعدها لم تعد العفاريت تمس ابنـي عمـرو، لكنـي ملابسي بدأت تختفي كلّها. ولم يتبق غير قميص نوم واحـد. وسرقوا الكمثرى والمانجو والخوخ من الثلاجة، وأخـذوا ٨ خواتم و ٤ غوايش وسلسلتين و٨ حلقـان ذهبيـة، وفتحـوا حصالة عمرو وأخذوا منهـا ١٢٠ جنيهـاً، واختفـى طقـم السرفيس الصيني قطعة وراء أخرى. وبعدها ملابس عمرو وأحذيته ثم ملابس زوجي...!".

أما أنا فقد حججت إلى أجمة شجر السسبان الملْتم حول البئر التي اغتسل فيها المسيح.

قالت إن السسبان يحميها، ويظللها مـن نكايـة عـين الشمس.

قالت إن عودها يطحن ويجفف ويجعـل منـه بخُـور ينشف رطوبة الأرحام ويقاوم نهش العقارب والأفاعي.

قالت إن حبها إذا ترك في نور البدر ليلة ١٤ نبتت له أجنحة وتخلقت منه طيور زرقاء ليس هنـاك أجمـل مـن تغريدها وترجيعها وهي تسبح وتحلق بين النجوم.

وإن دهنها – وهو أعز دهن الدنيا – يؤخذ عند طلوع الشعرى اليمانية – وآه من الشعرى اليمانية – بـأن يشـرط ساقه بالحديدة ويجمع ما يتبدى بقطنة.

قالت إنه لا يجاوز الست أوقيات، بحال.

ثم يدفع به إلى عم بشاي أبيسخيرون، هو وحده فـي العالم الذي يعرف سر طبخ الدهن، ولا يعلم أحـداً إلا ولـده الوحيد.

وكانت قد غنّت لي، من زمان، بصوت خافت، وكلّـه جنس:

طلعت فوق الجبل أشكي الهوى   آه يالا للّي
لقيت تلاتة بيقروا آه يالا للّي

الأوله... الثانِية... آه يالا للّي

التالِتة للغريب حفّضته باسم ا ... آه يـا روحـي... يالا للّي

آه يا سيدي يالا للّي.

دخلت جوه الجنينة غيط الياسمين يالا للّي...

والسسبان اشتكى والورد قال دا مين

رد العنب قال افتحي دا العاشق المسكين

دا الغريب اللي حفّضته باسم ا ...

قلت لها، وكنا عاريين أمـام كـأس مـن الويسـكي، وموسيقى سيبيلبوس تصدح بعنف، وقد شبعنا – مؤقتاً – من صنع الحب، سرعان ما سوف ينجاب الشبع:

- أتذكرين الغنوة التي فيها السسبان اشـتكى...؟ عرفـت وأنت تغنين، أنني الغريب، في جنة انفتحـت لـي لأول مرة، أكلت فيها من شجرة المعرفة، ومن شجرة الحيـاة معاً. وأصبحت نصف إله.
- ضحكتْ بخفوت، وعيناها تلمعان بما تجيده، هي وحدها، من سخرية خفيفة محبة – وحنون؟ - وقالت:
- هو أنت افتكرت أنك أنت الغريب؟

ولم تزد.

أفقت فجأة على أنني غريب حقاً حتى في غربتي.

فهل كانت تلك الضحكة هي التي أخرجتني من جنـة موهومة؟ أم هي التي أبقت هذه الجنّة، وليس فقط في وهمي؟

أما ثمرة السسبان، وفاكهة المعرفة المرة، وبذرة حياة الأبد، فقد كانت قد امتزجت بلحمي ودمي.

وشجرة الصبار النازعة إلى أعلى مليئة بالمر، وشجرة دم الأخوين، والأبوكاليبتس والجميز والنبق العجوز. أجمات الرؤى، رؤى الأدغال.

جنتي المفقودة، الباقية أبداً.

لم أصدق لحظة واحدة أنها لي.

أعرف أنّه ليس لي غيرها.

"يا طُلولاً برامةٍ دارسات".

لم يبق منك إلا الخطّ، والألم.

النزوة الثالثة

ثعبان في الأعشاب

كانت الشبابيك تفتح على البحر مباشرة.

ماء الموج الرفيق يأتي من عـرض الأفـق ليخـبِط الحيطان. صوت ارتطام البحر بالحيطان هين وموسيقي.

كنت أطل من الشباك، وقد سحرتني إيقاعات المـوج الرتيب.

تنبهت فجأة فإذا بي أرى أن السماء قد ادلهمت بغيـوم قاتمة تأتي بسرعة من الشمال، محملة بالنذُر، والهواء قد برد فجأة، بشكل محسوس.

ارتفع ثبج الأمواج، في صوتها الآن غضب. واشتدت لطماتها لحيطان بيتي. وكان الزبد الأبيض يرغي على أفواه فرسان اليم المهاجِمة.

الصيادون بمقـاطفهم وشـباكهم، وصـديرياتهم ذات الأزرار المتعددة اللامعة تحت جاكتـات مبلولـة وخلقـة، كثيرين، سمراً، منحوتي الوجوه، يدخلون علي مـن البـاب المفتوح، وقـد ارتفعـت الميـاه علـى بـلاط الأرضـية،

في دوامات مسطحة يطفو عليها الزبـد سـحابات رمـداء ممزقة.

شمرت البنطلون ورفعته إلى ما فوق ركبتي، ونزلـت إلى فَسحة البيت وقد غمرتها الميـاه التـي تـزداد هجومـاً وارتفاعاً، لحظة بعد لحظة.

رأيت أن الصيادين يخرجون ثانية، جريـاً، يطسـون الماء بسيقانهم السوداء القضيفة، وقد لموا شباكهم الضـخمة الثقيلة على أكتافهم، أسمع صوت اصطدام أقدامهم بـالبلاط المبلول، تحت الماء، ورشاش الموج المضطرب.

وجدت نفسي وحدي، والماء يرتفع، ويحدِق بي.

ولا طريق للنجاة

صرخة الليل المختنقة، المعتادة.

ريح البحر تحملني إلى حضـن الملائكـة الحجريـة، بيضاوات، صغيرات جداً، أجنحتهن هشة مرنة تنبسط تحتي فأسقط منها إلى لُبن البحر المزبد وفجوات المقابر المفتوحة. الهياكل العظمية الجافّة – هل هي عظام أبي وأمي وأخواتي؟ - تمد أذرعتها إلي كأنما تناديني، لا أسمع صوتاً تحت ثقـل سقطتي، بينما يصدر عن الملائكة ما يشبه طنين هيليوكوبتر،

أزيز متصل لا أسمع معه موسيقى السماء التـي أتوقعهـا، وتمتليء عيناي بالدموع لأنني تذكرت صوت التـرام الـذي يصطك بقضبانه في شارع راغب باشا.

كلّها اندثرت.

أشهق، كلاب المقابر كثيرة متزاحمة علـي تنبحنـي بعنف، أنيابها عارية حادة وهي فاغرة أفواهها. هل ترفضني أم ترحب بي؟

أما فتحية إبراهيم عرفات، وسـكنها ٣٥ ش القمـر، إسكندرية، فقد قالت للأهرام فـي ١٩٨٦/٨/٥ إنهـا زارت مقابر الشهداء بمحطّة السويس العسكرية وحزنت لمـا آلـت إليه؛ فالجدران مهدمة والطريق إليها غير ممهد ووصل الأمر إلى أن الداخل إلى المقابر قد يصطدم أحياناً ببعض العظـام البشرية فهل هكذا نرعى حرمة الأموات والشهداء، قالت.

مصابيح الشارع المتقدة بالغاز الذي يفح، تفك الرصـد وتكسر العزيمة وترجع إلى هيئتها الأولى تعود لها أجنحتهـا المرفرفة وتطير، وهي مشتعلة الجسوم، فـي سـماء غـيط العنب، تضيء لنا ليلنا، وتتجاوب مـع شـموع فوانيسـنا: وحوي وحوي ايوحه بنت السلطان أيوحه جابـت فسـطان

ايوحه، وترانيم الذكر تأتينا من وراء جامع سـيدي كـريم، نفحات هبات الهواء لها طعم مبلـول فـي الحـر الليلـي. وكأنني الآن – بحنو يمزق قلبي – أذوق طعم ملح دموعهـا القليلة المنسابة على خدها الخمري، المدور، الأسيل، الـذي أموت – الآن – شوقاً إليه، خمر بشرتها الناعمة.

خمر العشق قد تجمد حجراً في فمي.

نجيب تقاوي، أرسل للأهـرام كـذلك، برقيـة فـي ٢٧ يونيو ١٩٨١ يسأل: "كيف الوصول من ميدان العباسية إلى مستشفيات الصدر والحميات والبيطري بينما الشارع كلّه مطبات والبرك والمستنقعات وهيئة النقل رفضـت أن يمـر الأوتوبيس رقم ٦١ خوفاً على عرباتها وكـذلك التاكسـيات أهالي المرضى ينقلون مرضاهم على أكتافهم."

فهل يحمل العربجية أيضاً بغالهم الجريحة وحميـرهم المكسورة؟

"نرجو لفتة من المسئولين تنقذنا من هذه المعاناة" قال.

فهل من منقذ من المعاناة؟

رأيته يزحف، منساباً بهدوء، لا يكاد يتلـوى، علـى الموكيت الأخضر، جلده فضي ولامع يعكس ضوء النيـون

المشع من وراء الزجاج اللبني الصناعي في سقف البـوينج ٧٤٧ القادمة من سنغافورة إلى مطـار لاهـور. وأعشـاب الموكيت يانعة غضرة تتموج برقّة وعليها ندى.

نفثات لا تكاد تحس من رائحة الكاري والبهار كأنمـا تهب من جلد المقاعد ومن بين سـيقان الأعشـاب الهفهافـة اللدنة، مرسومة بدقّة، غضة، مهندسـة وهـي غيـر قابلـة للهندسة.

قلت: ثعبان كاليفورنيا، أم كوبرا إيزه؟

وكأن لم يره أحد غيري. وعندي لذلك ما يشبه الفخـر والاعتزاز.

أهذه البشارة؟

أم النذير؟

لي وحدي.

الطائرة الضخمة تنزل على الرمل، بنعومة، وعجلاتها العريضة تغوص فيه، دون أهون صدمة، على حرير، تنساب قليلاً إلى الأمام، وأنزل على الدرجات الحديديـة المضـلعة بحزوز بارزة في ترام الرمل، وقدماي الحافيتان تضربان في الجسد المنهار. أحس، بلذة، دفئها وبلولتها الخفية، لا تثـور

تحت قدمي أدنى هبوة من الرمال البيضاء التي تومض فيهـا حبيبات من دقيق معدني متلأليء، أو طحين زجاجي ممتزج بلحم الرمال متماسك القوام.

تلال الرمل المتموجة على أطرافها الآن غابات النخل القديمة في سيدي بِشْر. ظلال سعفها في الظهر القائظ جافّـة ومنعشة معاً، فيها روح متعة وسكينة كاملة، وسلام للـروح الهائشة.

أرى، من علٍ، موج البحـر المزبـد، بـلا صـوت، وكهوفاً منحوتة، لها أعمدة حجرية مربعة، تحت سطح الماء، وفيلة العشق تحملها على رءوسها المسـطحة وخراطيمهـا القوية المرفوعة إلى أعلى. صخر الكهـوف الخفيـة لـدن وصلب معاً، أريد أن أتمرغ على رقرقاته – كما أتمرغ على جسد الرمال – بذات الحس بالراحة، وذات الحس بالأمان.

تـرام الرمـل يصلصـل ويتعـرج فـي مسـاره، على يساري. ينساب على ربوة مرتفعـة صـلبة، جـدارها الرملّي الصلب منحوت بفئوس الفعلـة الصـعايدة، تسـنده عوارض خشبية طويلة وضخمة.

صخر الشاطيء ترغي فيه مويجات داكنة الخضـرة، طحالب لزجة تنمو، بشراهة، على حجر البنـاء المهجـور المتخاف من بناء كازينو سان استيفانو القديم، علـى بحـر زيزينيا أم بحر طرابزنده؟ بحر القلب الخفي أم بحر الظلمات الذي لا تمخره سفينة؟

هل أنزل الآن إلى كهـف اللـذّة الطـري المفتـوح، أم لا سبيل أمامي إليه، بين هذه الصخور جارحـة السـنان وطحالب الموت؟

احتكاك قدمي على الحجر الحـاد وشـظايا القواقـع المهشّمة أحسها مسحوقاً مسنناً من نثار زجاج غير شفاف.

طيور النورس حجارة مقذوفة علي من فوق، مسـددة إلي من صفحة اليم.

أحني رأسي بسـرعة مفاجئـة، علـى غيـر إرادة، وأرفع ذراعي أحمي وجهـي، أتفـادى خبطـات النـوارس الأبابيل متصلبة الأجنحة.

وتغوص ساقاي في فجوة عميقة من الرمـل الأبـيض المذرور.

ولا نجاة لي.

من ينقذني من هذا الجسد المعذّب، المقضي عليه؟

أما إلى يميني فبيوت رأس التين والأنفوشي وبحري، واطئة، مبلولة الحيطان، ناصلة الحجر.

كان الثعبان قد خرج من الباب، وانسلّ بسرعة على الأرض الترابية الرملية الرطبة.

لم يقربه أحد.

بل وسعوا له. قال لي الواد مرسي الجرسون، وهو يقدم لي القهوة المحوجة على الصينية النحاس المدورة المطبقة قليلاً:

- لا يا عم. وأنا مالي. دا بركة الحتّة كلّتها. أضربه إزاي يا سيدنا لفندي؟ دي وليفته مستنياه. اللي يمسه حتبخّ في عينيه، تجيب داغه، في ثانية يا بويا... اللهم احفظنا.

قال لي إنه مهما حطمنا رأسه فسيذهب إلى أليفته – بعد أن يموت – وعيناه قد رجعتا مفتوحتين وفيهما صورة من قتله. وسوف تعرف أنثاه كيف تناله.

تأتيه ولها نفخ ورعيد وهديد تحرق كل شيء في طريقها إلى ضحيتها، مسحوراً بنظرتها، وعلى رأسها إكليلها المعمول من ثلاث قنازع براقة بشتى الألوان.

تغرز ذيلها في الأرض، تنتصب كالعود، وهي تفـح، ثم تثب كالطير على القاتل المقتول.

يتيبس فور طعنتها لدغتها نهشتها.

وينزف الدم الأسود.

القيء والشلل والسقوط. القاتـل القتيـل يعـرف آلام الجحيم كلّها في أقلّ من ثانية. من غير ثمن.

صورة وجهك الأسيل مطبوعة على حـدقتي عينـي، حتى بعد أن أموت.

تنبحني الكلاب بشدة، فـي سـكك الجبانـة العتيقـة، بين حيطان القبور المتداعية. تهت عن الطريق إلى قبر أمي الذي عليه اسمي منقوشاً بالخطّ النسخ على رخامة بيضـاء، هل هو قبري؟ وكان عم مسيحة الآن قد تهدم بنيانه الجسيم، هائش اللحية، غير قادر على الحركة، بوابير الجاز التي تفح تحت قلقاس الغطاس انطفأت من سنين، حـل محلّهـا فـرن بوتاجاز عصري أبيض شيك في العشّة التـي انبنـت الآن بالحجر وأصبح لها باب خشبي مردود عليها.

السور الأبيض على يساري ممتد إلـى مـا لا نهايـة لا أعرف إلام يفضي.

بارحت أحلام النور والظلّ وصورها المهتزة بالأبيض والأسود.

احترقت الآن سينما ماجستيك الواسعة الجميلة وحـلّ محلّها دكّان جِزم، وإن ظلّ برجها الدائري مخروطي القمة، شامخاً.

كانوا قد أغلقوا الباب الطالع على شارع سعد زغلـول والذي تأتيه من عتمة الصالة الداخلية إلـى ردهـة دائريـة فسيحة فيها واجهات زجاجية عالية ومقوسة تضـيء فيهـا – حتى الساعة عشرة مسـاء – صـور الممثلـين الأنيقـة مصنوعة العيون مصفوفة الشعر بإتقان.

خرجت، مع جمهور حفلة الساعة ١٢، من الأبـواب الجانبية الحديدية الصغيرة، على الشارع الطويـل الخـاوي الممتد إلى ما لا نهاية.

ليل الإسكندرية صافٍ ومغْوٍ وبليلٌ فيـه دفء مـريح منعش لا أجد مثله أبداً في النهار، ولا في أي مكـان علـى الأرض.

ولحقت بنيامين قبل أن يقفل أبوابـه، السـاعة اثنـين الصبح، وأخـذت سـندوتش فـول بالطمـاطم والجرجيـر وسندويش فلافل بالطحينة البيضا، ودفعت ٢٤ مليماً فكّة.

هل ينتهي بي هذا الشارع المقفر إلى شارع السـلطان حسين، ومسرح الجلوب؟

ولكنه لا ينتهي.

لمحتها قادمة من بعيد، من الناحية الأخرى.

جاكتتهـا الجلديـة التروالكـار، عريضـة الكتفـين، تنزل إلى ما فوق ركبتيها العاريتين، جلدها أشهب يومض.

ولما اقتربت رأيت أن عينيها المـدورتين المتعبتـين، نصـف مغمضـتين، وأن زواق شـفتيها وخـديها فـاقع، وهي تنسل، لا تكاد تتلفت، تحت السور الأبيض الذاهب إلى غير غاية. ولما حاذتني قلت:" صباح الخير" فشبكت ذراعها على الفور بذراعي، دون كلمة، وأحسسـت جسـمها نـدياً وبارداً، وأردت – دون إرادة – أن أدفئها بحنانٍ جسدي ليس فيه شهوة قطّ، وقد انتصبت وهي تلتصق بي، عارفـة، فـي صمت.

لم يهتم موظف الاستقبال نصف النـائم فـي"دنـدرة" إلاّ بما نفحتُه. واضح أنه يعرفها، ويعرف زبائنها آخر الليل.

وكان السرير نظيفاً على غير ما أتوقع، ومندى أهون ندى من نفث البحر القريب، وللملاءات ونحن نرفعها حفيف يختلط بوشيش ضربات الموج الخافت الرتيب على أحجـار سور الكورنيش.

عندما خلعتْ الجاكتّـة الجلـد الاصـطناعي فضـية الوميض ورطبة اللمس رأيت أنها عارية تماماً تحتها.

تمددت فوراً على السرير، ثدياها صـغيران ممتلئـان أسمران غير متهدلين، ووسطها رفيع جـداً. لمـت سـاقيها الناحلتين ولفت رأسها بذراعيها، ورأيت أثر نـدوب قديمـة على فخذيها، وراحت فجأة في النوم.

ضحكت لنفسي دون صوت.

لم أغطها بملاءة السرير، قلتُ الدنيا حر علـى كـلّ حال. تركتها عارية، مكشوفة، متاحة، لا منعة لهـا، قلـت لنفسي مغطاة بستر الغلابة المعذبات، حتّـى وإن لـم تكـن تعرف. استر يارب على ولايانا. ولما حضنت جسمها الهزيل

إلي لم تحس بي، وند عنها صوت أشبه بأنين بنت مرتاحـة واثقة وآمنة. ونمت.

تواقعنا، بعد ذلك بقليل، أو بفتـرة، نصـف نـائمين، في حلم الفجر، بصمت، ودأب كالمأخوذين، وشقشـقة نـور الشفق لما تكد تتسلل من خصاص النافذة العاليـة المقفلـة، ووشيش الموج قد علا، وكان الولوج فيها ناعماً، ومحتومـاً، بلا لذّة تقريباً، كأنه بلا وعي، كأنه تلبيـة لأمـر لا يـرد. وعدنا إلى النوم على الفور.

وعندما استيقظت في بهرة الصبح وجدت أن السـاعة عشرة ونصف، وأصوات شارع سعد زغلول تصعد إلي من النافذة الطويلة المردودة، خشبها متآكل قليلاً، وابتسمت عندما تذكرت فجأة أن شعرها المفلفل، المكتكت، تحت فمي، كـان يفوح منه عطر صندل قوي، وأنه كان على بطنها الهضـيم ندب أبيض رفيع متموج من أثر ولادة قيصرية وأنـه كـان تحت ثديها –الشمال أم اليمين؟ - بقعة سوداء غير منتظمـة الحوافّز وعددت نقودي القليلة في جيب البنطلـون المثنّـي بعناية على ظهر الكرسي الوحيد الاسـتيل عـالي الظهـر،

فوجدتها ناقصة خمسة وعشـرين قرشـاً بالضـبط، يعنـي التعريفة المعتادة لا أكثر ولا أقل.

أم أن هذا ما حدث؟

لم أرها قطّ بعدها، مع أنني بحثت عنها، كثيراً، حتـى سلكت سكة المقابر وأسريت تحت أسوارها الطويلة وسمعت هرير آنوب في العتمة تلتفّ حول وسطه الكـوبرا الملكيـة، مميتي وفاتح فمي وباعـث مِـزق روحـي مـن الممـات – إن كان ثمت – يرعاها سرباً هائماً لا تعرف مستقراً.

ولما ذهبت إلى الجزيرة التي يسيل عندها ماء النيـل كانت الغرانيق بعيدة التطواف القادمـة مـن أقصـى بـلاد خراسان حيث الثلج الدائم، تقاتِل رجلاً من الحجر قامته قدر مائة ذراع، تطير وتحوم وتهدف إلى عينيه الفاغرتين وقـد لفّ على رأسه ثعبانه الملكي، وهو يخبطهـا بذراعيـه فـي حركات متصلبة، بينما الكوبرا تهب وتنفخ عليها وينشقّ فمها عن لسانها المزدوج الحاد، والغرانيق ترتفع جداً ثـم تسـفّ وهي تصيح.

كان الرجل الهائل الجسيم واقفاً على أعلى صرحٍ مشيد كالجبال، يمسك في يده فتاة تبـدو كالعصـفورة، تتـأرجح

أطرافها الأربعة وتتلوى في الهواء، وتهـب الريـاح التـي تثيرها الغرانيق حديدية الشكل متوازية الأجنحـة، فيرتفـع طرف فستانها الخفيف عن ساقين أملودين صغيرين جداً في يد الملك القرد المهول.

بكيتُ، في السر بالدموع السخنة الخفية، عنـدما لـم تأخذني أمي إلى سينما ستراند، عندما لم أر"كـنج كـونج". ولم أنس لوعة الخذلان حتى بعد ستّين عاماً. يا هووه! ستين عاماً. مازلت أذوق على طرف اللسان طعم ملح الدمع الذي سقط من ذاك الطفل، كأنما رغماً عنه – هل كان ذلك سـنة ١٩٣٦؟ - لأنه حرم – بعد وعد – من متعة تحقيق خيالات هائمة.

رسم خطوطاً ساذجة للرؤى الساذجة، ومازال، لكنهـا لم تحمل إليه عزاء، لا عندئذ ولا الآن.

نامت الغرانيق، وضعت رءوسها تحت أجنحتها، واقفة على ساق واحدة. نامت الغرانيق.

لكن شيخها لم ينم، ولا ينام أبد الدهر.

عنّابي... عنّابي

يا خدود الحليوة...

مجاريح الهوى – كما هو ذائع ومعروف – ليس لهم أطِبة.

ولا المحبوب طبيب، ولا عنده دوا.

هل يترصدني آنوب، كما يرصدنا جميعاً، إن شاء ا ؟

سمعت هريره الأبح وشممت أنفاسه النتنة، وجهه لا أراه، أعرف أنّه خلفي، قريب جداً مني، أعرف أنه ممدود الخطم ناتيء الأنياب. سرت إلي منه برودة لم أعرف مثلها قطّ، ذراعاه البشريتان تستديران بي، لهما حس سيقان الحيوان الأشعر كثيف الجلد.

أما التماسيح – في وسط شوارع رأس التين، أم بين دور صندابوره؟ - فقد كانت تزحف ببطونها قوية الحراشيف على التراب الرملي الرطب، ذيولها الضخمة تخبط الحيطان متّجهة، بتصميم، إلى الماء الحلو البعيد، هل تصل؟

وعندئذ فتح الناس أعينهم ورأوا الحية العظيمة وقد انتصبت برأسها، وقامت بجسدها الأملس، ونفثت شيئاً بصوتِ ضخِ محبوس، بشهقة كأنها أنين اللذّة. وتصلّب ركاب البوينج ٧٤٧ في مقاعدهم، والطائرة تشقّ بهم أطباق السماء، بصوت هدير محركاتها النفّاثة الأربعة، منتظماً، رتيباً. تحت

أنوار النيون اللبنية من وراء مسطحاتها المستطيلة المثبتة في السقف. هبت رياح مسمومة، تجمد كلّ النـاس، دون حيـاة، دون رجعة، ومضت الطائرة وحدها تمخر الأجواء الموحشة، دون أن تتوقف، دون أن تسقط، دون أن ترتفع. الطيار الآلي لا يموت، هو.

أما أنا فقد نظرتُ إلى عيني الحية العظيمة، ونظـرتْ إلى عيني.

ومن نظرتها النجلاء، مصفرة وخضراء وكلّها شـبق، جاحظة العينين قليلاً، مدورة الحدق، جاءتني حياةٌ شرسـةٌ، مازالت تفتك بي.

وما من رقية تنفعني من لدغة هذه النظرة الأولى.

كلّ الخطوط وكلّ الحروف وكـلّ التعـازيم أعيـدها وأزيدها، لا تبرئني، ولا تبررني.

النزوة الرابعة

نزوة مختنقة في الفجر

كان الفأر الأبيض الكبير ينقر الصخر.

وكان وديع الشكل ولكنه مخيف مـن غيـر ضـجة، من غير إعلان، شأن كل شيء مخيف حقاً.

سرب من القطـط المشمشـي تـدور، مـن تحـت، ولا تهاجم؛ تناور، وتقدم، وتحجم، وتحوم، في غير شجاعة، في شيء من التحوط، تحت سفح الصخرة، تحت هذا الفـأر الوحيد الذي أجد نفسي ممسكاً به، كما أمسك سلاحاً بيدي.

القطط تتكاثر في الغرف الجانبية الأخرى، في بيـوت الشوارع الأخرى التي تتشعب من تحـت قـدمي الصـخرة السامقة الخشنة.

البيوت - كما أراهـا – قليلـة علـى هـذا الشـطّ الصخري، والبحر يضرب الحجر القديم برفق ولكن بعنـاد وتصميم، ليس فيه رحمة، كالعادة.

الفأر هو الأمل النهائي الوحيد.

وهو، فيما أفكر، الفأر الوحيد الباقي.

لم يعد هناك من جنسه أحد غيره.

لم يعد هناك من سلاح غيره.

والقطط تداور وتراوغ، تموء وكأنّها تنـبح كـالكلاب التي تهاجم عدواً تعرف أنّه صعب المنال.

أقول لنفسـي: المنطـق معكـوس، ألـيس كـذلك؟ ومع ذلك هو طبيعي جداً، هو الشيء الذي لا شيء طبيعيـاً إلاّه. لم يخطر لي حقاً، لم يحدث قطّ، لم أقل لنفسي قـطّ إن فيه شيئاً غير طبيعي. هو قانون الحياة المسلّم بـه، إن هـذا الحيوان الأبيض الهادئ البريء وحش حقيقي، وأنه يخيـف، بل يفزع هذه الكلاب القطط الضباع بنات آوى.

بل إنه يجب علي – حتـى – أن أظـلّ ممسـكاً بـه لا أفلته من يدي، أن أتحكم فيه، أن أسيطر عليه وأكبحه حتى لا يطيح بهذا السرب القطيع الجحفل الذي يبدو أنّه لا حول له ولا طاقة به عليه، بل حتى لا يطيح بي.

أهذه لوائح الأسرار، وشوارق خطفات الأنوار؟

أم هو الوضوح بعينه؟

نوافح من عبق ونتن تهب من مكامن الخفاء؟

مرارة الملح في عينيـه، وقسـوة الحيطـان تكبلـه، والسحب تجري فوق السقوف، كأنها ذكريات.

قد أُنْسِي طعم السماوات الفساح، وعلى صدره جبال.

ذراعاه متقبضتان، تضمان الفراغ، وأصـابعه شـفّها الغضب.

أسوار من الصخر سِماق، بينه وطراوة الحلـم البائـد الأنيق.

يداه متوتّرتان، لم تصلا، ولا تصلان إلى شيء.

حطّ على حشاه شوق كئيب، الحلم يتنزى، ويتلوى من الضربات، ولا يموت. يغتذي المر مـن جـرح الصـخور، والصخر ينهج من غير شِفاه.

في شارع حار ورطب ومتقد بأنوار كلوبـات الغـاز ضاربة الوشيش كانت المرأة تجلس أمام مقلاة الموز يئز فيها زيت النخيل ويغلي في الماعون الأسود العريض، تبتسم عن نواجذ دامية متآكلة من أوراق حمراء يظلـون يمضـغونها ويلوكونها وتسيل عصاراتها القانية على أركـان أفـواههم. ابتسامة كالي الغاضبة المبغضـة للبشـر. رائحـة الزيـت الاستوائي يغلي ويفور، ونفخ الموز الـذي يحمـر ويفـوح،

تنفذ إلى الجلد توشك أن تدفعك أول الأمـر للقـيء، حتـى تعتادها، وتظن أنك لن تستطيع التخلص منها ولو بعد ألـف حمام، وتنظر إليـك المـرأة بعينـين عجـوزين مـاكرتين وساخرتين، نظرة غير عاقلة، تقريباً، أهي نفس نظرة العظاة الهائلة، ديناصور صغير حـي ومرعـب، إذ وقفـت لـي – كأنما تعترضني، تعترض على وجودي نفسه – في فنـاء المدرسة الأيديولوجية فـي وينيبـا تحـت تمثـال نكرومـا الأوساجيفو البرونزي الأسود، صارماً وعنده معرفة التاريخ النهائية التي أحبطت بالطبع، من يذكره الآن؟ نظرة من وراء التاريخ من عينين لا تطرفان، أم هي السحلية الهائلـة فـي حوش بيت الخراطين العتيق في أخميم، تحت السلّم الخشـبي الذي وقعت من عليه، تدحرجت حتى الأرض الترابية الرملية الرفيقة وجرحت في ركبتي اليمنى جرحاً لم يندمل حتى الآن – يعني ترك ندبة من الجلد شفيفة ورقيقة كالغشاء، حتى بعد ستين سنة. كانت السحلية ثابتة، خشنة الحراشـيف، تلهـث، بذيئة البطن المليء، ترفع رأسها إلى ما يقارب كتفي، واقفـة على ساقيها الخلفيتين وذيلها القوي، لم ترجع، واجهتني كأنّها

تقول شيئاً لذلك الطفل وهو بعد في سنيه الأولى. ضـحكت وأنا أسأل الآن: أكانت هذه أم التنين؟

عندما كنت ترسم النمر والأسد، بالقلم الرصاص، تخطّ وتمحو، للواجب الذي عليك أن تعمله لمدرس"الأشـياء" فـي مدرسة النيل الابتدائية في غيط العنـب، كانـت الوحـوش تتلبسها حياة فجائية، وتعمر غرفتك.

تنزل من على المائدة الرخامية البيضاوية التي فرشت عليها ورقة جورنال – أهو البلاغ أم الجهاد؟ - ورصصـت عليها كتبك المدرسية وكراساتك التي حسـب نظـام وزارة المعارف العمومية: أطع أباك وأمك، اغسل يديك قبل الأكـل وبعده، وكنت قد أخفيت رواية الجيب - تحتهـا – حتـى لا تراها أمك.

تخرج من ورق الكراسة إذن، وتفتح أفواهها عن أنياب مكشوفة من صنعك أنت، نمور صغيرة، بثلاث أرجل فقـط، لأنّك نسيت أن ترسم الرجل الرابعة، تثب من على المائـدة إلى أرض الغرفة الليلية الهادئة، على نور اللمبة نمـرة ١٠ مهتز الظلال.

تكبر الوحوش فجأة، وهي عارفة أنّهـا مدينـة لـك بوجودها، تنظر إليك النظرة الحيوانية الفاهمة التي لا يمكـن لك أن تسبر معناها.

الأسد له معرفة شعراء ملبدة، وعين واحدة، ألم ترسم له عيناً واحدة؟ ولبؤته، جماء، هضيمة الخصر، رأسها حـاد القسمات نظيف العظام، مسحوبة الـبطن، أرشـق وأنـزى وأسرع خطى وأخفّ جسماً، خطوها أنشط وأوقع، تلتصـق بساقيك وهي تهر وتموء وترفع إليك عينيهـا الصـفراوين، تلعق جسمك بلسانٍ خشن ومبلل وسخن.

أما النمر الأعرج المـرقّط فترتفـع عظـام ظهـره، وهو يظلع في الغرفة. يقف على ساقه الخلفية الواحدة، مثـل النمر الذي على صابون نمر النابلسي الممتاز، فريد في نقائه وحيد في صفاته إنتاج مصانع حسن نمر نـابلس بفلسـطين القطعة منه تقوم مقام قطعتين أو قطعة ونصف من الأصناف العادية ولا تكلف أكثر منها إلا بضـعة مليمـات الـوكلاء الوحيدون للجملة بالمملكة المصرية السـادة سـالم وسـعيد بازرعة بالجمالية تليفون ٤٢٨١٧ ويباع بالقطاعي في جميع محلات العطارة والبقالة اشتريته من عم محمود البقال الـذي

على قمة بيتنا في شارع الكروم والذي كنت أطلب منه حتّـة حلاوة طحينية كلّ مرة، فيقطعها لي بالسـكّين مـن قـرص الحلاوة الكبير الضخم المندى المغطّى بورق زبدة، ويقربهـا من فمي وهي على طرف السكّين الهائلة المرعبة.

وتملأ الوحوش عليك غرفتك، وعلـى ألفتهـا بـك، وتمسحها برجليك، وحرارة جسومها التي تسري منهـا إلـى ساقيك، فإنّها تجأر وتزأر وتزمجر، لا يسمعها أحد غيـرك، وتظلّ شديدة الحضور في ليلك، بكـل قوتهـا، وشراسـتها، وغرابتها، وتظلّ تحمل في دخيلتهـا تهديـداً باطنيـاً لـك، كأنّه تهديد منك إليك، وليس غريباً عنك.

استيقظت بعد منتصف الليل، كنت قد سافرت بالسيارة مرتين ذهاباً ومجيئاً، استغرق السفر ساعات على الطريـق الأسفلت الذي تحفّه أحراش تكاد تقتحمه، وتشقّ أنوار السيارة طريقها في قلب الأجمات المتكاثفة المنذرة. السيارة تضـرب في سكّتها بسرعة خاطفة بين جانبي الأدغال التي تظلم تماماً بمجرد أن تتركها السيارة، مقطوعة الشقين، مسكونة بأشباح الوحوش المتوهمة الماثلة. وفيما بعد سوف تنقلـب السـيارة التي كانت تقل المندوب اللبناني الشاب فتقتله علـى الفـور،

وسوف أستمر أذرع هذا الطريق القاتل عدة مـرات، أنفـذ خطفـاً كمـن تلاحقنـي الهـولات داميـات الأنيـاب، بين جموح شموس غير مرئية وميدان النجم الأسود وفنـدق وندسور، في أكرا.

كان العرق بارداً على جسمي المنهك، ودقات الطبـل في "النايت كلوب" تخترق السقف إلي، عويـل الساكسـفون، ونحيب الجاز الزنجي الـذي عـاد إلـى أهلـه يطوعونـه لإيقاعاتهم، هم، من جديد.

البنت التي رأيتهـا، مـن السـيارة، بعـد الظهـر، في حوش البيت الضيق المترب الحار، كانت واقفة تتمطـى، عارية الصدر تماماً، في الرابعة عشرة ربمـا، أو أصـغر، نهداها قائمان صغيران وممتلئان، الحلمات تبـرز مكـورة، من منطقة السواد الخشن المحبب الواسعة الناتئة على قمة كلّ ربوة ناهضة متحدية، تبتسم ابتسامة غارقة في جسمها، ترفع ذراعيها وتمدهما حتى الآخر في راحة عضـوية بحتـة، لا تعي شيئاً آخر غير متعة خالصة بـوحش الجسـد الكـامن المتلبسها.

رامة تحت الدوش المنهمر بميـاه سـاخنة مشـرئبة بحيوان جسدها كله مغمضة عينيها مبتسمة نصف ابتسـامة، غير عاقلة وغير إنسانية تقريباً، ناسية كل شيء، كأنها – أو هي بالفعل – لا تحس بنظرتي الأكالة المنهومة إلـى هـذه الجثمانية كاملـة التـدويرات، ولا بتـوتر يـدي وذراعـي الشرستين اللتين سوف تحيطان بها تريدان أن تضغطاها إلي حتى تنسحق وتندمج في لا يعود ثم شقّ تنفذ منه نسمة بـين الجسدين المتلاصقين حتّى ليكادان يستحيلان جسـماً واحـداً لا فجوة فيه ولا أدنى فرجة بين أشلائه المتلاحمة المتنزية.

انكسار الأضلاع والأطراف والتئامها مرة أخرى دون أن تعود أبداً إلى نسقها الأول، الوسط – مثـل المـوديلات الجبس أو الخشب التي يعرفها الفنانون أو تعرضها واجهات المحلات – لم يتسق تماماً مع أسفل الصدر، ظلّ فيه نتـوء اللصق غير المحكم، بعد المكسر، السيقان حلت إحداها محلّ الأخرى، معوجة قليلاً، والقدمان قد ركبتا في اتجاه معكوس، وثم مفاصل منزوعة لم تجد مكانهـا قـطّ فتركـت محلّهـا فراغات لها لون الجبس.

الشفق الأحمر الصموت في سماء مقطوعة تطلّ علي، معابثة ومراوغة، من سقف غرفة نومي المزدحمة.

فهل أوشكت هذه النزوة أن تأتي إلى خاتمة؟

أليس ثم نهاية؟

لا.. لا.. لا...

مسته، في الشفق، رقّة شفتيها، وأصابعه ترعى شعرها الوحف الأثيث، عيناها تبسمان على صدره.

ابتسامة مرة طعين، لا تلتئم، وشوق مدحور.

كلّ ما يعرفه منها ابتسامة من غريب، كنصـب فـي ميدان جديب، كلغة غير مفهومة.

رئتاه مختنقتان، تتلمسان نسمة من هواء مـن صـخر مسدود.

إيفيت في بنطلون حريـري كثيـف النسـيج، داكـن الخضرة، لاصق بساقيها وفخذيها حتّى يجسـم مـا بينهمـا ويكور بطنهـا الملـيء، جـاءت، حسـب الميعـاد، أمـام "المونسنيور"..

وكان المطر رذاذاً والبحر داكن الزرقة، أنوار قليلـة تنعكس على سطحه، والجو دافيء على غير العادة في آخـر نوفمبر.

وجدنا الباب الزجاجي مغلقاً، وخرج لنـا مـن وراء الستائر الحمراء الثقيلة من يقول إن الكازينو لـيس مفتوحـاً الليلة، كده، من غير أسباب.

فهمنا – من السيارات الحمراء الفارهة الرابضة علـى الكورنيش، ومن جو الرهبة والتوتر، ومـن مجـرد وجـود هؤلاء الأشخاص، طوالاً، أعوادهم قائمة وأجسامهم جهيـرة ووجوههم جافية، واقفين على النواصـي دون حـراك – أن الملك كان بالداخل، كان أحياناً يطب من مصر لقضاء سهرة.

قُلنا نذهب إلى دوفيل في سـتانلي، وأخـذنا تاكسـي، وأخذتها، برفق، في عتمة السيارة، إلى جنبي، فالتصقت بي، وهي تكاد تموء كقطّة برية مغتلمـة قلـيلاً تطلـب السـفاد وشممت منها رائحة مميزة حريفة.

وفي الدوفيل وجدنا جـورج وميشـيل وفهمـي مـع صديقاتهم سيلفيا، ومادلين، وستيفو ضخمة الثديين، وجاء بعد قليل كراز وزوجته الرشيقة المحندأة لا تضارعها امرأة فـي

أناقة السمت، وكان رقصنا في غمرة الويسكي وصفرة ألوان المصابيح المدورة الصغيرة كأنه غرق متعمد في بحيـرات الجسد وفي حمأة روح مضطربة.

حكاية هذه الروح لا تريد أن تنتهي.

مشتبكة متواشجة مع جسـمها الـذي يتخلـى عنهـا بالتدريج، ويتقوض. "ماذا لقيت من الهوى.. ولقينا؟".

تحت شجرة الجهنمية الهائلة الأعضـاء، فـي سـوق البرتقال، تلال من الثمار الناضجة الصفراء، ونصبات بدائية من الخشب، مثل تلك التي عندنا فـي الموسـكي أو جنـب العمود في كرموز، عليها ملابس أطفال وحريمي وقمصـان وبلوزات نايلون وسوتيانات مخرمة وكيلوتات ملونة زبالـة أسواق العالم مرمية مكومة مفرودة ومطوية ومعلقة ومدلدلة على حبال مرتخية الأوصال، بمشـابك غسـيل بلاسـتيك، والبائعة الجسيمة الأرداف عليها تلال من اللحم تربض على الأرض كومة من الجسد الأسود اللامع المنعش تحت ثوبهـا الملون، مدهشة في صباها ونضارتها، أمامها قصاع صغيرة كثيرة مليئة بحبوب دقيقة شكلها مثـل شـكل حبـة البركـة أو العدس الأسود وأوراق شجر جافّة لها رائحة نفّاذة وسوائل

لزجة داكنة الخضرة داكنة الزرقة عليها غشاء متموج نصف شفاف، وأيضاً حبات الكولا وجوزة الطيب وصـنوف مـن البهارات.

قالت لي وهي تشير إلي بأصبع مدملجة سوداء الجلد، لامعة، بيضاء من الداخل:

- تعال يا حليوة، يا صغيري، تعال إلى "مامي" تعطيك من عندها ما تسمن به نحولك، وتُنضج شبابك. تعال تسترح عندي.

وضحكت. ضـحكة كـالي المغضـبة؟ أم ضـحكة السيجيريا متنوعة الشكول وافرة الأثداء، محبة؟

لكنني ارتعدت، كأنما استشرافاً لما سوف يحيق بي من عشق.

أما البنت التي ضربت بالروج القاني عميقاً في لمـي شفتيها البارزتين، متدلّيتين قليلاً مكشوفتين من الداخل قليلاً، فقد رقصت معي في "النايت وندسور" على صرخات الجـاز المصنوع والوحشي معاً، وهي في فستانها الساتان الأحمـر الذي تنزل حمالاته حتّى منتصف الظهر وحتّى قمة ثـدييها المهتزين مازالا بريين غير مروضين، مفترسـة العينـين،

شيطت الشمس شعرها المفلفل الفـواح، وأحسسـت بطنهـا المقبب يلتصق بانتصابي في حميا سكر الروح بنشوات جسد حلت فيه واستولت عليه ينقر ويقرض في صخر لدن ملفوف بالحرير الأصفر مفصلاً من قماش براشوت الإنجليز الـذي كان يباع بالغالي في زنقة الستات وبالمزاد العلني في سـوق القباري صنعت منه غلالات رقيقة ومطـواع تحكـم دوران الردفين الصغيرين وتمسك البطن الرفيع مسكة حنانة وتوثق ربطاتها بمخالب مبطنة ناعمة حول النهدين فتصـنع منهمـا نداء متحدياً فـي قبتـين نابضـتين وبـاذختين مكبـوحتين وجامحتين.

هل تذكر دروس الرقص الأولى في بيتك في شـارع الباشا كليو باترا الحمامات، وأنت كنت في حالة حب بلا أمل – كما يقال – أو بلا كبير أمل، شأن كلّ المحبين على أيامك، وفي أيامنا هذه أيضاً لأسباب مختلفة أو مؤتلفة غيـر مهـم، وفتحي يعلمك الخطوات الأولـى أسـطوانة الكومبارسـيتا المخرفشة قليلاً تدور على قرص الجرامفون النقالي الصغير الذي اشتريته نصف عمر بالتقسيط. وهل ذهبت إلى أكاديمية الرقص برئاسة البروفيسور اسبيرو الحائز على دبلوم مـن

معهد اتحاد أساتذة الرقص بباريس بمعهده في شارع النبـي دانيال، ولم تتقن هذه اللعبة تماماً، قط، كأن الموسيقى الشاقّة التي تمور بداخلك وتضطرب، عارمة، بجـ ذاذات أحشـائك المنهوشة بعربدة أخرى، كأنها – ألـيس كـ ذلك؟ - تعـوق خلوصك لموسيقى الرقص السهلة، ديونيزيوس الذي يجـأر ويخور لا يمكن أن يستمع إلى الإيقاعـات الرخيـة، وأنـت تقبض على أطراف السماء نفسها، ملء ذراعيك، في خبطات الطبل وصفقات الصناج، تهتف بالعالم في امتلاءات صدرك بالأبواق، الأكوان الشاسعة تتساقط بين يديك فتجمعهـا فـي فرح شرس يرقص الأفلاك نفسـها، وحيطـان العـالم قـد أصبحت هشة تذروها الرياح فتسقط عنها نفاضة النجوم.

رقى، تتلوها شفاه أنثوية، من محبات صابية.

- <u>**كتب محيي عبد الرحمن للأخبـار فـي ١٩٨٢/٦/٢٠:**</u>

خطف نجار طفلة صغيرة من أمـام منزلـة بإمبابـة ليعرضها للبيع في بني سويف . تمكن رجال مباحث الجيزة من القبض عليه وأمرت النيابة بحبسه.

وكان العقيد محمد فوده وكيل مباحث الجيزة يـرأس كميناً ليلياً لتفتيش السيارات. هبط راكب مـن الأوتـوبيس المتجه إلى أسيوط وأخبره بأنه يشك في راكب معه طفلـة تبكي بحرارة.

وبمناقشة الراكب الذي تبين أنه نجار زعم أن الطفلة ابنته. سأل العقيد فوده الطفلة فقالت إن اسمها رحاب وإنها لا تعرف الراكب. انهار الراكب واعترف للمقدم إبراهيم عبد العليم أنه خطف الطفلة وهي تلعب أمـام منزلـه بإمبابـه ليعرضها للبيع لأي سيدة عاقر أو أسرة تريد خادمة.

قام العميد ممدوح الجوهري باستدعاء أحمـد محمـد عمارة والد الطفلة ووالدتها سعدية موسـى ولـم يصـدقا أعينهما واحتضنا الطفلة التي عادت بعـد خطفهـا بـثلاث ساعات فقط وأمرت النيابة بحبس النجار المتهم.

خدعونا فقالوا عصر التنوير خدعونا فقـالوا حقـوق الإنسان خدعونا فقالوا السنة الدولية للطفل. خدعونا. فقـط. ليس غير أنهم خدعونا، أو أننا اخترنا أن نكون مخـدوعين. ألم يكن الأطفال على طول العصور سلعاً تبـاع وتشـترى وتستغلّ وتستهلك عبر كلّ أسواق النخاسة وساحات السـبي

في كل أنحاء العالم. ومازالوا. مازالوا، هم والكبار أيضـاً. ولهم سوق رائجة فـي نيجيريـا وزيمبـابوي والبرازيـل والسودان مازالوا يجمعون ويعبئون تحت الطلب في أكيـاس بلاستيك يباعون بالجملة والقطاعي الكبد والكلاوي والفشـة والبمبار والجوهرة كلها جاهزة، وعبـوات الـدم الطـازة، تصنف وتبرد وتخزن في الثلاجات. مازالوا يمنعـون عـن حياتهم حتى يكملوا جيوش المرتزقة والمقاتلين – بعد فتـرة التجهيز والتشطيب، ومازال منهم عندنا، اسمهم كلهـم بليـة أو دقدق أو حدقة، أو فقط "ياواد".. "يابت" يقضون طفـولتهم سخرة ومذلة تحت هياكـل السـيارات ودكـاكين السـمكرة والدوكو وورش الحدادة، في الزيت الوسخ والكـلام الوسـخ واللبس الوسخ، أو في تسييء البلاط ومسح طيـز العيـال، وتهنينهم وحملهم – وهم كالبغال – على الأكتاف المنحوفـة الوهنانة.

خدعونا.

ألم يخدعونا؟

فلنقلها على الأقلّ. يا هووه!

أما رحاب الطفلة البنت فأنثى صغيرة – من صورتها المنشورة على الملأ في الجورنال – إصبعها الصغيرة فـي فمها وشعرها الأسود غير ممشط ينـزل طـويلاً ومتنـاثر الخصل في فوضى مغوية دون قصد، عيناهـا المتسـائلتان واسعتان. أهذه نظرة براءة كاملة أم نظرة شيطنة هينة ولكنها مثيرة؟

لا. ليست بضاعة.

عندما سأله المحقق: لماذا؟

لم يقل النجار فقط إنّه كان محتاجاً للقرشي، بـل قـال أيضاً:

- دا الشيطان هو اللي وزني يا بيه.. أعمل إيه؟

ثم التفت إلى البنت الطفلة نجلاء العينين وهمس، كأنما لنفسه:

- أهو بيساط أبدان على أبدان.

كانت سطوة البنت عليه قاضية.

ربما.

ترداد اسمك بين شفتيه، كالأنين، نـداء عينيـه فـي الظلام، ضجيج ألم طحين. صرخة الموت، تتردد كلّ يـوم، في أحراشه الموحشة، يتلقفها الصدى الكتيم.

ألا تسمعين؟

انتحرت شغالة فلبينية داخل شقة مخـدومها بشـبرا. شنقت نفسها بحبل عنـدما علمـت أن مخـدومتها قـررت الاستغناء عنها. تولّى مدحت عبد الفتاح وكيل نيابـة شـمال القاهرة التحقيق وأمر بانتداب الطبيب الشرعي لتشريح الجثة.

كان العقيد جمال عبد العال مأمور قسم شبرا قد تلقّـى بلاغاً من فوزية عواد المقيمة بشارع زيـن الـدين بشـبرا بالعثور على شغالة ابنتها، الفلبينية، مشنوقة بشرفة الشقة.

أكمل رشاد كامل حكاية تحقيقه الصحفي للأخبار يـوم ١٩٨٧/٧/٥.

انتقل العقيدان سعيد عبد الهادي وكيل المباحث ومحمد رحمو مفتش مباحث شبرا إلى مكان الحادث.

تبين أن الشغالة وتدعى تـوننج تومـاس (٢٥) سـنة حضرت من الكويت مع مخدومتها وزوجها لرعاية طفلتيهـا الصغيرتين، وأقاموا بشقة والدة الزوجة بشبرا.

اكتشفت الزوجة أن الشغالة تأتي بأفعـال شـاذة مـع طفلتيها الصغيرتين، فقررت الاستغناء عنها؛ بمجرد وصولها إلى الكويت، وأبلغتها بذلك، وخرجت مع زوجها لزيارة أحد أقاربهم.

عند عودتهما اكتشفا الحادث.

شنقت نفسها.

قال الطبيب الشرعي هبوط حاد بالدورة الدموية نتيجة كسر العظم اللامي. وقرر إرسال عينة من الأمعاء للمعمـل الجنائي لتحليلها.

شنقت نفسها.

ألف صنف وصنف يصنَع منها العالم. وينفض.

أدغال وحوشي الداخلية مازالت تغص بسكانها.

النـزوة الخامسة

سراي المجيدية

كنا في جناح الفندق الذي يطلّ على نهر تجمد مـاؤه، يبدو من النافذة العالية شريطاً أبيض براقاً، موجات سـطحه جامدة الآن، داعية للتهور والسـقوط فـي قبضـة مثلوجـة لا فكاك منها.

كان هواء التكييف ينزل من السقف دفقـات وهبـات متقطعة تنصب على المقاعد الحمراء الناصلة والسجاد القديم الذي نحلت وبرته الباذخة نقوشه تترية الإلهام.

أهذه دموع تترقرق على انهيار صروح أنت تعرف – وقد دفعت ثمن معرفتك – أنها صروح عسف لا يطاق؟

أم على أحلام ظلت مستكنة، كفئرات وديعـة بيضـاء هاربة في أركان الحيطان مذهبة الزخرف التي بهت ذهبها، مختبئة في دواليب الملابس الفارغة التي يفوح منهـا عطـن حال عسكرية عتيقة لا ينجاب.

لماذا هي حال عسكرية بالذات؟ قلت لنفسي

ولكني كنت موقناً

أهذه دموع؟

لست أدري.

فرغنا من أكل آخر ملعقة من الكافيار الأسود اللامع المحبب الطري. فتات الخبز الأسود مازال متناثراً على رخام المائدة الثقيلة الضخمة بلون الجرانيت الأصهب المجزع، راسخاً على السيقان الخشبية الحسية المنحوتة من الأبنوس.

عبد الحليم حافظ يشدو من المسجل الصغير: في يوم، في شهر، في سنة.. تهدا الجراح وتنام. وعمر جرحي أنا.. أطول من الأيام.. وداع يا حبي، يا أحلام...

هل شجن الشدو هو الذي يصعد بالدموع من مكامنها؟

"في مدينة "تل بسطا" بالقرب من الزقازيق تمثال ضخم تتعرى أمامه عشرات السيدات يومياً، لأنهن يعتقدن أنه قادر على علاج المرأة العاقر. تأتي إليه، وتخلع ملابسها أمامه، ثم تصب على جسدها ماء من إبريق أسود موضوع أمامه. ثم تقذف بالإبريق في وجه تمثال آخر بجانبه. ثم تلبس ملابسها

وهي قريرة العين، مطمئنة إلى أن حلمها من إنجاب مولـود سوف يتحقق.."

نص ما كتبه سعيد الغزاوي، الزقازيق، إلى "الأهرام" في ٢١ نوفمبر ١٩٧٥.

قال صاحبي عرفته يا مولانا عندما كنت صبياً، فـي قرية المجيدية. قرية كانت أيامها صغيرة جداً، ازدحمت الآن بل اكتظت. كان بيتهم القديم في حارة عوض ا . لا، لـيس عبد الحليم يا أخي، قصدي الشيخ عبد الشـفيع الفرمـاوي. كان قد راح، ورجع وأصبح له اسم في المجيدية وبنى لنفسه بيتاً من الطوب الأحمر والأسمنت وسط بيوت القرية المبنية من الطين وحاراتها الضيقة المتلوية.

وحتى بعد أن فتح ا عليه – لم يكن قد وصل بعد – كان لا يبخل علينا بالتلاوة بصوته الـرخيم الأجـش قلـيلاً، وتمكنه المدهش من الإلقاء والترنيم، وكنـت مـا أزال فـي الابتدائية لم أذهب بعد لمدرسة التمريض، كان بيته الجديـد في عيني فخماً ومؤثثاً بأشياء لم أر مثلها من قبل، السجاجيد والستائر والطقم المذهب وريش الطـاووس المعلـق علـى حيطان مدهونة بالزيت، خضراء لامعة.

ولكنه كان لا يحضر مولد سيدي الأربعين الذي كنت أفرح به، ألعب المراجيح، وأتفرج على الغوازي اللاتي كن يأتين إليه، وعلى فرقة الثقافة الجماهيرية التي تأتي إلينا من المركز لكي تمثل لنا "ليالي الحصاد" سمعته يقول إن ذلك كله حرام في حرام.

أبي حكى لي حكاية زواجه. كان الشيخ طالباً بعد مازال في مدرسة منوف الابتدائية عندما زاره أبوه، الشيخ المهيب الكبير، ليحمل له الزوادة من عيش البتاو الناشف والجبن القريش والمش المعتبر وحتة الزفر.

دخل على الغرفة التي كان يسكنها ابنه على سطح بيت عتيق، فوجد عبد الشفيع، على السطح، يساعد بنت الجيران على إنزال بلاص الماء من على رأسها، وهي تنهج موردة الخدين جداً يشر الماء من البلاص، وتحت رجليها طست الغسيل الفارغ وكومة الهدوم، والشمس تضوي على ذراعي البنت المرفوعتين اللتين سقطت عنهما الأكمام الواسعة، والماء يسرسب على صدرها الناهد المبلول من وراء سفرة الجلابية.

حاف الفرماوي الكبير على ابنه أن يعزل فـي ليلتهـا وأن يزوجه في جمعتها، وزوجه فعلاً قريبتهم التـي كانـت تسكن جاري، حدا بيت عم أندراوس المجبراتي. بنت راجل غلبان على قد حاله.

قال صاحبي:

- كنت أراها في سكتي للكتاب، فستانها الكستور لـه صدر ضيق بسفرة عالية ترفع نهديها وتكومهما في كرة لحم متراكبة واحدة فوق خط الخياطة غير المتقنة، وهي تـدعك الحلل بالرمل الناشف وتصب عليها قليلاً من ماء الطلمبـة، من كوز صفيح أسود. لم أستطع قط أن أتبين شـكل الوشـم الأخضر الذي على رسغها اليمين.

بعد صلاة الجمعة ٢٨ ديسمبر ١٩٩٠ تضرعت مصر كلها إلى المولى عز وجل كي ينزل الأمطـار بعـد طـول جفاف، أقيمت صلاة الاستسقاء لكي يعـم الغيـث ويـروي الأرض العطشانة، ويوم الأحد ٣٠ أقيمـت القداسـات فـي كنائس مصر.

كان الشيخ عبد المسيح الفرماوي يـدعو ا بصـوته الرخيم، الأخن، الأجش قليلاً، وجنبات صحن الكنيسة تحـت

القبة الأثرية تردد أصداء الصنوج وطرقات رنـين النحـاس سبحوا الرب، سبحوا، ارقصوا أمام الناووس المقدس، سبحوا مجده في الأرض والسماء.

قصر الكلام، قال لي صاحبي، راح سـيدنا، مولانـا، مصر. أين كان سيروح؟ التحق بالمعهد العتيق، واشتغل على نحو اللغة العتيقة. وفقهها، مثل المئات، والآلاف ممن لقنـوا فقهها في البلاد العتيق.

لكن صاحبنا كـان يحـب الشـعر أيضـاً، أي وا ، ألم تكد جارته أم بلاص تفتنه؟ الشـعر العمـودي الأصـلي طبعاً، لغاية شوقي، وقف عنده ولم يتزحزح، ونظمه أيضـاً مثل كل الشباب الطموح، مقلداً بعناية ومـن غيـر موهبـة أصلاً، نظمه على النمط العمودي الأصـلي، مـدح الملـك فاروق أولاً، وسدته السنية، وطلعته البهية، ثم مـدح ثـورة يوليو، ثورة كاللهب، تب الطغاة والطاغوت فاروق تب.

هـل كـان يومهـا – وصـاحبي يحكـي لـي – ٢٧ يوليو ١٩٨٧ حين قرأت في "العرب" التي تصدر فـي لندن ما كتبه المراسل الذي لم يفصح عن اسمه، فهـل هـذه حكاية صحيحة أم للإثارة الصحفية فقط:

"هل تذكرون الدكتور نظمي لوقا؟ أول قبطي مصري يكتب ثلاثة كتب عن الإسلام، هي محمد الرسالة والرسول، وامحمداه، أبو بكر حواري محمد.

الدكتور نظمي لوقا مات أخيراً في صمت. صحف الحكومة والمعارضة المصرية معاً لم تهتم أبداً (هكذا) بخبر وفاته ورحيله (هكذا) خاصة وأن الرجل له نتاج أدبي جيد منه: المحترق بين الشك واليقين، وروايته: رقيق الأرض. لكن أغرب ما في قصة رحيل نظمي لوقا أنه عند الذهاب بجثمانه إلى إحدى كنائس مصر من أجل الصلاة عليه قبل دفنه، قيل لأهله إن هناك تعليمات كنسية عليا بعدم الصلاة عليه في أي كنيسة مصرية دون إبداء أي أسباب.

وهكذا دفن نظمي لوقا دون الصلاة عليه".

حكى لي توفيق، على التليفون، عن لدد عائلته وهي تدوخ بحثاً عن كنيسة يرضى القسيس فيها أن يصلي على الميت، ثم بحثاً عن مقبرة يدفن فيها، من غير صلاة، فهل رضي أحد في الآخر أن يصلي عليه؟ وهل دفن في الآخر تحت التراب غير المكرس الذي يواري المنتحرين وغير المعمدين والمطرودين من النعمة؟

هل كانت تلك بقايا دموع؟

كنا نسكن جنب بيت عم أندراوس المجبراتي العجـوز ذائع الصيت الذي كانوا يطلبونه، بالاسم، من كـل القـرى والنجوع، والمركز، وحتى من مصر، ورث الصنعة أباً عن جد من القدماء ، وليس أخف منه يداً ولا أبرع صنعة في لم العظام المكسورة، مات الآن ا يرحمه بقى ويقدس روحـه، كما تقولون، لم يخاف ولداً ولا صبياً يحذق المهنة، راحـت عليهم الأيام.

قال صاحبي – ألا يقول كـل الصـحاب، فـي كـل القصص، عندما لا يريد صاحب الحكاية أن يقـول بنفسـه، فيتخفى وراء صاحب موهوم؟ لم يكن صاحبي موهوماً، كان جسيماً – قبل أن يهده السكر – وذلق اللسان وله شهرة أيضاً وطول باع في شغلته. ولم يكن صاحباً ولا صـديقاً، علـى الحقيقة، بل كان فقط زميل رحلة.

من غير ما أطول عليك – قال – ربنـا فـتح عليـه وجرت الفلوس بين يديه، فبنى لنفسه في آخر الـدنيا ملجـأ وملاذاً يأوي إليه، ليستجم ويذكر الرب ويستروح ويتفكر في كون ا وعجائب خليقته، ويمارس عملاً غريباً وسرياً.

بناه على جبل قفر موحش يطل مباشرة علـى البحـر الأحمر، بين الغردقة وسفاجة، كان كما يقولون، بيته الآخر، لعله بيته الحقيقي. بيت الشمس.

قصر غريب، ربما كان صغيراً بعض الشـيء، مـن الحجر الأبيض المضلع، والقرميد الأحمر على سطوح مثلثة الشـكل، وجدرانـه مبطنـة بالخشـب الجـوز الفـاخر، وله أبراج أربعة، عالية ورفيعة، مثل مآذن علـى الطـراز الإسلامبولي، نوافذ، ضيقة مستطيلة عليهـا زجـاج ملـون معشق.

مبني على سيف الصخر، عالياً، في قلب الجبل متشبثاً بشعابه، جـداره الشـرقي يطـل علـى البحـر مباشـرة، من علوه الشاهق، الأمواج المزبدة تبدو صغيرة جداً وبطيئة وذاهبة في عرض الأفق إلى مالا نهاية.

ولا وصول إليه إلا عن طريق دائـري صـاعد مـن الناحية الأخرى، ضيق ومدكوك بالحجر لا يتسع إلا لسـيارة واحدة، مشقوق بين الصخر تكاد تطبق عليه أضلاع الحجـر المهددة.

قلت: من هو؟ لا يمكن أن يكون هو؟

قال: أحكي عن آخر، بالتأكيد. تلك حكاية أخرى.

قال إنهم يقولون إن غرفة نومه، في الجانب الشـرقي البحري، هي الوحيدة التي لها نافذة بسعة الغرفة كلها، واجهة زجاجية واحدة عريضة من الحائط للحائط، زجاجها مـدخن، سميك، تحوم عليه عقبان البحر الأحمر الشـامخة ممـدودة الأجنحة على آخرها، ثابتة، تحلق، تقترب منه جداً حتى لتكاد ترتطم به، ثم تعود تصعد إلى أجواز السماء كأنها مرمي بها إلى أعلى مثل قذيفة مدفع صامتة.

كانت أمواج البحر تضرب، تحت الجبل، تحت جدران السراية، ظلالها وفضتها تنعكس في المرآة الخضراء الداكنة، غائرة، ذاهبة إلى أسفل، صـخر الجبـل وجـدار السـراية وأبراجها المستدقة الأطراف تنزل حتـى السـماء السـفلية المقلوبة ونصف القمر الذي يترقرق به المـاء فـي عمـق سحيق، بين الغيوم الواقفة السوداء.

باب السراي الخشبي الضخم منعكس في غور المـاء الساجي، في حضن الجبل، منحوتاً بنقوش دائرية هندسية في وسطها "عنخ" بارز مربع الأضلاع وحول أطرافه استدارات

كأجسام الزهور، كلها محددة دقيقة المعالم، تحت، في المـاء الهادئ غير المسبور.

المهم، قال، إنهم يقولون. هذه كلها أقاويل.

فلقة الصدفة الهائلة،فضية اللون، مثل تلك التي انشقت عن أفروديت من زبد البحر، تطفو على ثبج البحر الأحمـر في ليالي تمام البدر.

تسحبها ستة من أسماك القـرش البيضـاء الكبيـرة، ظهورها تعلو وتهبط في قلب الماء المشع بزرقـة بيضـاء خفيفة الزبد.

وقيل لا ليست أسماك القرش بل هي جنيـات البحـر العاريات يضربن الموج بأردافهن اللحيمـة البيضـاء التـي تنتهي إلى ذيل ذي زعانف كبيرة مكسو بـالفلوس البراقـة المدورة العريضة.

قال: المعروف شرعاً أن أمة الجن من مخلوقـات ا وأن منهم الطيب والخبيث وأنهم مكلفون كالإنس، وا وحده هو الذي يعلم أماكنهم على التحديد.

في جوف فلقة الصدفة الهائلة تربض، كأنهـا خائفـة، هذه القامة النحيلة الطويلة، مائلة للسـواد، عظامهـا جافـة،

بالجلابية الرقيقة البيضاء على اللحـم، والطاقيـة المـدورة الرفيعة، أشعة البدر تنعكس على شعيرات اللحيـة البيضـاء القليلة.

القصد، قال لي صاحبي، آجي بالحكاية مـن الآخـر. راح سيدنا للخليج وللشام، عدة مرات، أين كان سيروح مثلاً؟ وبين كل إعارة وأخرى راح يعلم فقه اللغة العتيقة وآدابهـا، في صقلية، وبلاد شطوط المتوسط، لم قرشين كويسين يعني، وربنا فتح عليه كمان وكمان، عرف السكة للصحافة أولاً، ثم للإذاعة مرة، قل مرتين، لا أكثر.

ثم أصبحت الساحة البيضاء الصغيرة – أو الملونـة – ساحة انطلاقته وتفجره، مواهبه لا يملكها أبرع بهلوان علـى حبال الصوت والحركة. يتربع على الشـلتة العاليـة تحـت العمود، ويهتز ذات اليمين وذات اليسار، كان أداؤه ممتزجـاً بجسمه الذي يهب به موج غير مرئي ويسجو ملتبساً بروحه المعذبة المنسكبة بالآيات والمقادس وأحاديث المغازي ونُـذُر الأبوكاليبس والمزامير ومثول الخطيئة والفـداء والخـلاص والصلوات المحفوظة عبـر الـدهور، والسـخر والتنديـد بالجاحدين والكافرين؛ وكانوا على المقاعـد الخشـبية التـي

نعمها جلوس القانتين أجيالاً وراء أجيال؛ ثريات الكريسـتال ترمي ضوءاً معشياً على الأيقونات القديمة التي تلمع عجينتها الترابية من القدم فلا تكاد ترى الشـخوص وراءهـا تحـت ترسبات السنين، على المنمنمات والمقرنصـات والمثمنـات ورقش الفسيفساء باسم الجلالة والنبيين والحـواريين الاثنـى عشر. وهو يعلم ويعظ ويسأل ويجيب بنفسه على سؤاله ويعد ويتوعد ويلقن ويستنفر ويستفز ويكبس سامعيه المسحورين ثم يهزهم يوقظهم من بهرة التنغـيم وتـرقيص الأسـماع ثـم يهدهـــدهم مـــرة ثانيـــة فيهتفـــون "ألـــلاااااه!" يشور بيديه ويخبط على فخذه، يخشوشـن صـوته ويعلـو ويجلجل وهو يبرق عينيه ثم يهبط إلى ترجيع أخن مهموس، وهو مسبل الجفنين في خشوع، ويرفع ذراعيه بالدعاء، كأنه يناجي آتون.

أثرى وأصبح مولى الملايين ومـوئلهم وطبعـت لـه الكتب عن السحر والجن والشياطين والرقى وسير الشـهداء ومعجزات البطاركة والقديسين والتطيب والتطبيب بالأعشاب وعاش في فيللا بالقاهرة من أموال مليونير هارب وعنـدما سافر للعلاج في أمريكا نزل من الطائرة بالبرنيطة والجاكتة

والبنطلون، وكأنما كان حليقاً ليس في جسمه ولا رأسه شعرة واحدة وعلى كتفه جلد الفهد المقدس.

يصغون مأخوذين إلى نبرات الشجن والتضرع المرفوع – كالبخور – تحت القبة السامقة التي تكاد تختفي من فوق نور الثريات والشموع المبثوثة في الأركان على الأعمدة وجدران الصرح المنيف. وهو يشوح بكم فرجيته الحرير السوداء تنحسر عن ذراعين ضاويتين، كأنه يرمي عليهم تعزيمة سحر: أيها الرب ابسط حمايتك علينا، قنا عذاب سقر، ارحمنا يا سيد، بشفاعة قديسيك وأوليائك الصالحين، بحق المشاعل الأربعة المتقدة على أطراف المركب السابح على بحر طغمات السنين بحق عين الشمس في كبد السماء حتى يسري عصير الروح من جسد رع إلى جسد حور بحق القرص الأبدي بحق القلب غير المائت الذي جحد الشر بحق العين التي إن أخطأت حق سملها بحق الذراعين المطروحتين للدينونة، المتضرعتين، النابعتين من كرتي الصدر الناهض تملؤه أنفاس لا تخبو أبد الدهر بحق القرد والضبع وابن آوى، والأسد واللبؤة مقترنين بلا انفصال لحظة واحدة ولا طرفة عين بحق ملائكة الأرض عقربائيل

وجرمهياييل وطلقطبابييل وشلهميابييل بحق ملائكة السماء ميخائيل وجبرائيل ورافائيل وإسرافيل وكل المرنمين بحمد ا بموسيقى الأفلاك الدوارة إلى أبد الآبدين.

وقال صاحبي الذي ليس مزعوماً ولا موهوماً إن غرفة نومه المطلة واجهتها الزجاجة الفسيحة على البحر مباشرة، من علٍ، فيها سرير عريض واطئ خشبه عارٍ من أي فرش، ينزل في فجوة بأرض الغرفة، بالضغط على زنبرك حديدي قوي مثبت في قاع السرير، ينخفض قليلاً قليلاً بفعل ذراع مستترة، حتى يصل إلى مستوى أرض الغرفة، ويغوص فيها قدر نصف ذراع، فيبدو سطحه الخشبي الخام، خشناً وغريباً في قلب السجاد الأصفهاني الوثير. الشمس أتون تصب فيها ضوءها القوي.

كن يأتين إليه، بمواعيد سابقة ومحددة، سيدات من بقايا الأرستقراطية الملكية البائدة، رشيقات، جافات القدود، منتصبات القامات، وزوجات وعشيقات المليونيرات والمليارديرات الجدد، مربربات مليئات باللحم المحبوك وبنضارة الصبا ومثقلات، في أناقة، بالذهب، الأساور حول

المعاصم والعقود حول الأعناق والخلاخيل – حتى – حـول السيقان أحياناً.

زيارات سرية، ومحسوبة.

ليس له. لأن غوايته ليست في النساء.

بل للاعتراف، والكفارة.

يبكين.

هل كن يبكين بالدر على الخد الأسـيل المعـد جيـداً بالبانكيك والماكياج، يعضضن على العناب بالبرد؟

يقلن إنهن أخطأن، ويعترفن. ولكنه لا يكتفي بل يطالب منهن أن يقلنها صراحة: إنهن زانيات.

ويستمع، بشرهٍ وصمتٍ ولكن بإصـرار، إلـى كـلّ التفاصيل، ويسأل، ويقتضي إجابة سافرة: كيـف كـن فـي الفراش، وكيف كان رجالهن، كم مرة، وبأية طريقة، وكيـف كان التمهيد، والتبويس، والتحسـيس، والـدخول، وأسـاليب العناق من الأمام أم من دبر، هل كن نائمات أم راكعات؟

في يده كأس النبيذ الأبيض، يترشفه كأنه لا يدري ماذا يفعل.

ثم يأمرهن بخلع ملابسهن كلها، أمامه، قطعة قطعـة، فيما عدا الحلي الذهبية يحتفظن بالحلقان والأساور والعقـود على الصدور العارية المترجرجة، والخلاخيل في السـيقان. ويأمرهن بصوت أخن أجش، أن تلبس الواحدة منهن قناعـاً أسود كاملاً يخفي وجهها وشعرها تماماً. يتمددن على السرير الخشبي الجاف على بطـونهن، يعطينـه الظهـر المـدملج والردفين العاليين، خصل الشعر والوجه النسوي قد اختفـت الآن تماماً، لم يبق إلا الجسم الغلماني.

ويوقع العقاب ويستأدي الكفارة، على طريقته.

يخفق الجسم الممدد بالدرة، بينما السرير ينزل ببطء له صرير.

السوط الرفيع ، بلسـان واحـد، يئـز فـي الهـواء، من غير عنف، ويسقط على الجسم الملقى باستسلام، الـذي هبط الآن تحت مستوى الأرض، لم يبق واضحاً وناتئاً منـه إلا الأرداف، مرة أو مرتين، أو ثلاثاً على الأكثر.

الندبة الطويلة تتورم على الفور في خط متعرج طويل على الربوتين المرتفعتين ووهدة الظهر.

في حالات قليلة – قال صاحبي – كان له ختم دقيـق بارز، عليه نقش منمنم غير مفهوم القسمات، يحميـه بالنـار على مجمرة صغيرة يمسكها من سلسلة طويلة، حتى يحمـر النقش ويتوهج، ويمس به الردف الشمال – دائماً الشـمال – بسرعة وبراعة ونظافة، اللحم الناعم المحترق يطش، تصعد له رائحة شياط خفيفة، مذاق أول من نار جهنم، ثم يطهـره على الفور بمعجون أحمر خاص، يزول الألم لتوه، ويظـل النقش محفوراً لا يمحى.

ذلك أن النار لا تحرق أحياناً.

ألم يأتك حديث المرأة التي ألقت بنفسها في التنور، من فرط مواجيدها، ولم تحترق؟

بعد لذعة السوط، أو طشة الحـرق، جسـمه النحيـل يرتعد، مرة، مرتين في جلابيته البيضاء الرقيقة – توشك أن تكون شفافة – رعدة اللذة القهرية العنيدة، كأنها دائماً مفاجئة.

ذلك كله لم يحدث.

قال بصوت جهير، ثم مهموس مضروب:

"في يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وفي المنطقة المحيطة بمسجد أبو السعود بمصر القديمة تتكـرر مأسـاة أخلاقيـة

ومهازل تتستر في الدين والدين منها بريء منذ الصباح وحتى غروب الشمس ترى جموع النسوة وقد التففن في حلقات الزار يتمايلن مترنحات كاشفات عما حرم ا رؤيته من أجسادهن، ناحرات الذبائح للعفاريت والجان بأمر من شياطينهن مخالفات لأمر ا من أن تلك الذبائح تدخل ضمن ما أهل به لغير ا .. وإشاعات تروج عن بركة مياه بئر تقع داخل المسجد وكيف أنها تداوي المرضى وتشفي العليل. انظروا ما آل إليه حالنا".

اقتراح بمشروع قانون لمجلس الشعب ينص على أن تلتزم الفتيات والسيدات العاملات بالجهاز الإداري بالدولة والقطاع العام ومعاهد ومدارس التعليم في مختلف مراحله ومستوياته بارتداء زي يتوفر فيه ما يلي: ألا يكون كاشفاً لما يجب ستره، ألا يصف، ألا يشف، على أن تنظم كل جهة نوع القماش واللون المناسب لطبيعة العمل بها، وعلى أن يصدر الوزراء ورؤساء الجامعات والمعاهد، كل فيما يخصه، القرارات اللازمة لتنفيذ هذا القانون، وتعاقب كل مخالفة لأحكام هذا القانون بالحرمان من الترقية المادية أو الأدبية.

مبروك علينا سبع بركات..!

في أرض الحوش الرملية المتحدرة قليلاً الواسعة على هضبة من الجبل، أسراب النعام تتواثب وتظالـع بأعناقهـا ومناقيرها الممدودة، كانت له – مازال صاحبي يقول، وقـد أوشك أن يفرغ من حكايته – هوايةٌ غير مألوفة، أن يحـرم النعام من الطعام أياماً، ثم يأتي بالمسجل الجروندنج الضخم، وله سماعات قوة ٥٠٠ واط، تقرع الموسيقى بغتة، تصدر عن المسجل أعلى الأصوات وأضخمها وأكثرها عنفـاً، تخـبط الطبول ويدوي النفير، يجري النعام جيئة وذهابـاً ، فزعـاً، يتصادم، تتلاطم أعناقه وتتشابك في صرع المفاجأة، يرفرف بأجنحة قاصرة لا تقدر على التحليق، يسقط بعض الطيـور صريعاً.

هذه حكاية سيدنا، مولانا، صاحبنا. حكايته، حكايتهما، حكايتهم، حكايتنا كلنا. هل هي حقاً حكايته، أم من اختـراع صاحبي الموهوم؟

قال: حلوة وإلا ملتوتة..؟

قلت: عليك غنوة.

وغنيت أنا، كأنني مرغم، أغنيتي المكرورة المملة.

الجمد الهش البلوري على القلب. مازال النهر الأسود يموج في العمق، تحت لمعة الثلج.

صروح العسف صروح الأحـلام المجهضـة تتفكـك وتنهار وما تفتأ تقوم هنا أو هناك علـى السـواء أو علـى الاختلاف.

أبراج هشة الأركان ومرهوبة ومتجددة عبـر الحقـب والدهور.

هل تسقط الصروح؟ ومتى؟

أمواج الجسد المظلمة، بحيرات الروح المهتاجة

جريحاً على صخور الجبل، مصلوباً على شعابه.

مضروباً في الصميم، ضربةً لا برء منها،

ضربة الحب التي لا برء منها.

والشهوة.

شهوات العقل شهوات الروح لا ري لها، هي القاتلة.

النزوة السادسة

اليقظة في المعتقل

وكأنما تيقظت صباحاً في معتقل صحراوي.

أجد نفسي في العنبر، وحدي. تركني كل الناس.

إلى جانبي بدلتي معلقة بمسمار على الحـائط، تهتـز. وعلى صندوق خشـبي مقلـوب أشـيائي اليوميـة فقـط: فرشاة الأسنان والمعجون، عـدة الحلاقـة، وكتـاب شـعر إنجليزي.

العنبر واسع وخاوٍ، ليس فيه إلا سـريري الحديـدي الضيق وعليه المرتبة القش الهابطة في منتصفها. اصـطدام قدمي بالبلاط له صدى.

أفهم، بشكل ما، أن زملائي – من بقـي مـنهم فـي المعتقل – مازالوا هنا، في مكان ما. ولكني أحس مع ذلـك أنهم ليسوا هناك.

كنت بالليل – في الحلم ربما؟ - قد أحسسـت أننـي وحدي الآن، تماماً. وأعرف مع ذلك أن هناك حضوراً آخر.

هل هي ذئاب، ضباع، كلاب الصحراء؟ أسمع صوت خطاهم المسترقة، أشم رائحة الحيوانات البرية، قوية ونفاذة، أنفـاس هذه الحضور الفاهمة غير العاقلة، كأنها علي، في ظلمة غير كاملة.

استيقظت الآن تماماً، وقمت.

كل شيء مهجور وخاوٍ. لا حرس. لا أحد. الصحراء فقط.

الباب الحديدي في وسط سور السلك الشـائك معـوج وموارب قليلاً.

قلت: إذن فقد خرجوا، كلهم، وتركوني؟

أجد نفسي دون عائق، في الخارج. في الصحراء.

كانت الرحلة في مراكب الليل شاقة.

هل انتهت الرحلة، وآن لي أن أحط الرحال؟

امرأة أعرابية، ملففة بثياب سود قديمـة، فضفاضـة وثقيلة، حالت خضرتها المطرزة، تقف على جنب، على غير مبعدة من المعتقل المهجور، تدعو لي: ربنا يعمر بيتك، ربنا ينور لك طريقك.

ينور لي؟

في نور هذا الصباح الباهر، الموحش؟

أصل إلى الطريق الصحراوي، والعمال يشتغلون فـي نصف الطريق بالطول، النصف الثاني شكله سخن وطـري، والإسفلت فيه لامع السواد، ومعدات الرصف واقفة ضـخمة الهياكل، حديدية الأذرع والبطون.

أراهم مشغولين عني، كلهم، لا أحد يراني.

أحس أنني هارب، خرجت، هكذا، دون تصريح، دون أمر إفراج. مازلت سجيناً وليس حولي إلا امتدادات الرمال، بلا نهاية، على الجانبين.

صحاري الوصال خاوية، فكم بالحري بيد البعاد.

جاء الأوتوبيس، على نصف الطريق المسفلت القـديم. هل مكتوب عليه بخط رديء لا يكاد يقرأ: الطور-السويس؟

لونه الأخضر الباهت صدئ تساقط طلاؤه في بقع غير منتظمة بان فيها الصفيح المغضـن المتقـبض. الأوتـوبيس متهالك ولكنه شغال، والمحرك له أزيز قوي. عنيد.

عبء على كتفي أنا وحدي، حريتي، فرحتها المكبوتة في قلبي لا يعرفها أحد.

لا مبالاة الناس. والأشياء. والعالم.

عندما صعدت إلى الأوتوبيس تحت نظرات الركـاب التي لا معنى لها، بدو ملففين بالأبيض المصـفر، وجنـود، واثنين ثلاثة أفندية، رثاثتهم تتأكد في سطوع الصبح، وفـي يدي شنطتي الجلد الاصطناعي القديمة، مطبقـة، لاحظـت لأول مرة أن جزمتي بوزها مفتوح، وأن نظارتي مكسـورة الإطار، مربوطة بسلك.

عندئذ تيقظت.

لذعة الخجل العتيق نفسها.

مهما كنت متحرراً، وثورياً حتى.

أداري شرابي المقطوع بأن أدسه في حذائي، وأنا أطلع الطريق الطويل الصاعد إلى ربوة المدرسة العباسية الثانوية في محرم بك.

أتلفت خلفي، هل أفلت الشراب من ظهـر الجزمـة، وظهر الفتق الفاغر عن الكعب العاري؟ ونحن، تلاميذ سـنة ثالثة ثانوي، بدوي وجورج وحسن، نتحدث عن اجتياح قوات هتلر سهول أوروبا، عن هزيمة دنكرك، عن الطيران النازي الذي لا يقهر، وأقول في حماسة لا انطفاء لهـا أبـداً: لـن تنتصر الفاشية، هذه طبيعة الأشياء.

يا لإيمان الصبا الفاخر!

في ٢٦ فبراير ١٩٠٧ اجتمع مجلس النُظار في الساعة الثالثة بعد الظهر في سراي عابدين العامرة تحـت رئاسـة الجناب العالي الخديوي. ووافق على ما يأتي:

أولاً : تعيين فتحي بك زغلول رئيس محكمـة مصـر الابتدائية الأهلية وكيلاً لنظارة الحقانية.

ثانياً : تعيين المستر دنلوب مستشار نظارة المعـارف العمومية رئيساً للجنة العلمية الإدارية، وتخويل سعادة نـاظر المعارف سعد زغلول باشا تعيين من يقوم مقامة أثناء غيابه.

ثالثاً : تعيين كل من أصحاب العزة عبد الخالق ثروت بك مديراً للإدارة القضائية للمحاكم الأهلية بنظارة الحقانيـة وأمين بك علي رئيس محكمة الإسكندرية وأحمد ذو الفقار بك بمحكمة المنصورة المختلطة مستشارين في محكمة الاستئناف الأهلية.

وقالت "المصري" مع أنباء اغتيال النقراشي باشا على أيـدي الإخـوان المسـلمين، فـي ٢٩ ديسـمبر ١٩٤٨، إن وقف المرحوم السيد محمد شـريف باشـا الكبيـر ١٥٢ شارع محمد علي بمصر تليفون ٥٩٥١٥ يشهر مـزاد بيـع

القطعة ٤١ بتقسيمه بمنيل الروضة ومساحتها ٦٣٩م بسـعر المتر ٣ جنيه فلراغب الشراء المعاينة والحضـور لمحكمـة مصر الشرعية بجلسة ١٦ يناير ١٩٤٩ ومعه التأمين وسألت أين تذهب هذا المساء؟ وأجابت بأن الفرقة المصـرية بـدار الأوبرا الملكية اليوم عطلة وأن شـكوكو وفرقتـه بمسـرح الأزبكية ت ٥٦٣٤٠٩ سامية – كارم وفرقـة بديعـة وببـا كازينو بديعة استعراض أبو طرطور ألحان موسيقى وحلمية بالاس ت٦٢٠١٧ استعراضات – زوزو كوكا وسراج منير في إيزيس لص بغداد بـالألوان الطبيعيـة ونـاطق باللغـة العربية.

هل كنت يومها في معتقل أبو قير؟

لم نكن قد رحلنا بعد إلى الطور.

ولم أكن قد استيقظت لأجد نفسي فـي حلـم المعتقـل المهجور والصحراء التي يشقها طريق مثل طريق العباسـية الثانوية، أو الطريق الصحراوي الذي كنت أشتغل فيـه مـع خالي ناتان، جنب الرست هاوس.

ولا على كوابيس اليقظة التي تستغرق، كل يوم، أبـداً من الزمن، وهو مازال على حافة النوم حافة الموت عنـدما

يجتاحه رعب أن الحياة قد انقضت، من غير جدوى، ومـن غير معنى، الجهاد الحسن والاستبسال أياً كانت حماقته – أو نبالته ربما؟ - والرمي بالنفس في وجه الاستعداد للاستشهاد مـن أجـل أشـياء أيـاً كـان تهافتهـا وسـخفها – أو سموها ربما، وسحرها على كل حـال – والخيبـات، والجبانات،والخذلان، والصـمت، والتقـاعس، والقسـوات، والكدح المتصل من أجل الحب، والرزق، وشهوات الـروح. انقضت، ولت، انحسرت، ولم تبق أمامه إلا أيـام المـرض والعجز والألم، الهواجس الموصوفة في الكتب، والوساوس المأثورة وطأتها ليست أقل لأنها مكتوبة ومعروفة، وصـور النهايات المحتملة والمتخيلة المضروبة قدراً أو المضـروب ميعادها بعمد وإرادة في فعل نهائي مرتب ومقصـود ومعـد بعناية، أسوف يأتي في الظلمة غير الكاملة؟

فيقوم منتفضاً، يوقظ معه الموسيقى الكامنة، ويتلهـى بطقوس الصباح، دون تلهية، يا فتاح يـا علـيم، اصـطبحنا واصطبح الملك ! أم هو الطريق الترابي الضيق بين دكان عم شنودة البقال في الطرانة والسور الطويـل المبنـي مـن الطوب اللبن، مازلت أقطعه؟

باب دكان عم شنودة قد صغر وضاق، أصبح كوة لا أعرف كيف يمكن أن يخرج منها أحد. السور مازال طويلاً طويلاً لا آخر له، سور بيت الشيخ علوان الحائط السد في الطرانة، سور الجبانة في الشاطبي سور سينما ماجستيك المحترقة سور الجنينة القبلية في الصعيد حيث قتلت هنية سور الروح المحاصر المحيق، وكأنني أظل أذرع هذا الطريق، تحت هذا السور، بلا وصول.

قالت له إن فرانسيس بيكون قد مات قال ألم تلحظي قط تأثير جوجان الوحشي عليه؟ قال كان ذئباً مستوحشاً والعالم عنده دغل متفجر شائه قالت ألم يكن يعشق الغلمان أو يعشقونه؟ قال ولم يكن يسقط كأس الشمبانيا من يده أو لا يكاد، قالت تشكيلاته تشويهات. قال موارة بالحمم الجسدانية الحارة ألم تكن المسوخ أمشاجاً وأبضاعاً تنز وتنزو بدم اللون؟ وتستصرخ بلا مجيب؟ قال إن الحوشية عندهم في أدغال الألوان والأهواء، فنون وشجون.

قالت إن صديقه بشاي أبسخيرون حوشي المنازع في الرسم وفي الشبق سواء.

قالت له عندئذ فقط أنت الحوشي المؤدب، وأما هو فقد كان لجوجاً وملحاحاً وهو يعرض علي أهوائه "الحوشـية" – كما تقول أنت الآن – قالت كنت أصده برفق مرة ومرتين ثم بحسم حتى ارعوى!، قال لها مرة في سان فرانسيسكو قضى ليلة مع مومس غالية الثمن في غرفته، وسكر، ولما اسـتيقظ وجد نفسه عارياً تقريباً، بالفانلة واللباس، ووجد غرفته أيضاً شبه عارية، اختفت لوحاته وكتبه، هذا ما أحزنه حقاً، للحظة. واضح أنها كانت شرموطة مثقفة أيضاً إلى جانب أنها لصة، فقد ذهب معطفه الفرو الفاحش الثمن، وسلسـلة ذهبيـة ١٨ قيراط غليظة وثقيلة كانت تسقط من عنقه حتى بطنه، وكـل ما في محفظته من أوراق النقد الأمريكية والفرنسية وأخـذت أيضاً جواز السفر ورخصة السيارة التي كان قد تركها فـي باريس وبطاقة الائتمان الخاصة التي لا تنفع أحـداً غيـره، أعلى سبيل انتقام ما؟ لكنه – بطبعه – لم يبـال كثيـراً، أو قليلاً، ترك الأمور كما يتركها دائماً تجري في أعنتها، فلعله كان قد نسي رقصته تلك معك، وأنا أهشم بيدي العصـبيتين أضغاث الورد القديم، كما نسي يقظته تلك في غرفـة سـان فرانسيسكو، في العراء.

قال لها ألم تفتحي له، ليلتها، ثغرة نور خضراء في قلب انصباب السديم الأصهب الأرمد الكابي؟ ألم تكن أصابعك تدغدغ الشعر الكثيف في مؤخرة رأسه المحني عليك بلهفة وأنتما ترقصان؟

أتلك عادة من عادات الرقص عندك؟ في تلك الليلة الأولى كنت تفعلين ذلك نفسه مع الفلسطيني، في شرفة من بيت موسكوفي عربي التصقت به، وعبثت بالشعر في مؤخرة عنقه وأنت ترفعين إليه عينيك الواسعتين الضارعتين. ولدهشتي، ومفاجأتي قذفت أنا، كأنني تقمصته. ونمت معه، كي تقولي لي على سبيل المفارقة إنك تحبينني أنا.

ليلة أن كدت أموت، فيزيقياً، وأنا أقذف بأحشائي وبالعالم كله معاً، تحت الدوش، هواناً ورفضاً. وبعد نصف نومة تنفضها رجفات الألم المتصل جئت تودعينني فجراً، وتيقظت على رسالة منك لم أتحقق منها، حتى الآن، رغم المواثيق والمحبات.

كنت أسحق بين أصابعي أوراق وردتك الناعمة المخملية، رطبة بالندى السخن حريف الرائحة.

لماذا جروح العشق لا تندمل أبداً؟

صعب ترويض الذئاب، وثمرة الفـن – والعشـق – يستحيل كبحها وإن كان جموحها قـاتلاً. عطـور الحـريم لا تهدهد من غلوائها، ولا قطر الياسمين والميموزا واللوتس، ولا عجينة عنبر كشمير الداكنة لزوجتها المتماسكة وبـرودة ملمسها عليه إذ تدلكه بها وهو نائم مرتخٍ شبعان بعد سـورة الهجوم. مسكة حنانة وحاسمة ومتوترة ومحنكة فيتنبه ويشتد وتتدفق فيه من جديد دماء العشق والفن وقد خزلـت منهـا تدويرات أعضائها وطيات أثدائها وتنزيات أطرافها وعكنات بطنها حقاق طرية مليئة بدهن اللبان المياه الذهبيـة اللبنيـة تنبجس فجأة لها دوي طبل العالم قرع الصنوج في الخـواء الممتد بلا نهاية.

تلك يقظة.

واليقظة الأخرى الأنيسة في صباحات هادئة ووديعـة على أصوات الشارع الصغيرة: تنفيض المرتبة في بلكونـة مجاورة صوت الراديو وحوار عائلي صباحي يصل بعيـداً غير مستبين المعالم أصوات أليفة ليس فيها اقتحام بل تـبطن الصباح بحشو رقيق الجسم دردشة الجيران مـن الشـبابيك

وعبر البلكونات تأتي من غير وضوح تخبو وترتفـع فجـأة وعنها يا ستي إديته كلمتين في عضمه هو أنا حاسـكت لـه برضو، فشر وغلاوة ولادك بلاش وغلاوة ولادي ويـروح الحوار في تضاعيف نداءات البيـاعين مـن تحـت بيكيـا روبابيكيا المدمس لوووز جمبري عنبر جمبري بنور البصل البصل الجديد بساريا لوف الحمام صوت احتكـاك المكنسـة القش بالبلاط وسقوط قطرات منتظمة لها إيقاع رقيـق مـن حنفية الحوض في المطبخ كلك عسل يا توت أهرام مصري الاثنين والدنيا اقرا فكري أباظة احتكاك عجلات ترام الرمل بالقضبان وصلصلة جرسه البهيجـة وتـرداد هديـده بـين الحيطان حس الملاءة النظيفة واللحاف غير ثقيل ومطمـئن حس جسمه بينهما وتماس فخذيه وتوتر ما بينهما في غيـر تطلب لشيء ما الآن وحتى عند صعود صوت ملتـاع مـن الشارع إلهي يهدك يا شيخ بحق سـيدي العبـاس المرسـي لاحسن دا حرام عليك حرام والنبي بقايا زقزقـة العصـافير المتقاطرة القليلة الآن في قلب أوراق الشجر الملتفة تختـرق هذا الصباح العالي بطعناتها الحادة ربنا ع الظـالم روح يـا شيخ ربنا ع المفتري خفوت الدعوة اللاعجـة فيهـا قبـول

ورضى مضمر وترك الأمر للتصـاريف غيـر المحسـوبة وانبثاقات قصيرة لنفير السيارات العابرة القليلة وأغنية علـي محمود طه المهندس من الراديو كليوباترا أي حلم من لياليك الحسان ينادي في تنغيم يبدو شجياً في هذه اليقظة بالصـوت الحلو الذي آل إلى كهولة ناضجة.

بعد أربعين، خمس وأربعـين سـنة يكتـب للأهـرام مصطفى السمان مقيم ٣٠ شارع السبع، إمبابة، عـن تلـك السيدة التي كانت عندئذ، في مثل ذلك الصـباح، فـي نحـو العشرين من عمرها. أين كانت ومن أين أتت؟ من الفلاحين؟ هل كانت – ذلك الصباح، مثلاً – تحمل البلاص على رأسها، في قرية من قرى إمبابة، تأتي بالماء من الموردة في النيل؟ وتقضي النهار في رعي الجاموسة التي تأكل الحلفا وأنـواع الزرع الشيطاني على شط النهر الذي كان ما يزال بريئـاً؟ هل كانت من وسط البلد أم من أطرافها؟ هل كانت في بيـت أبيها أم كانت تخدم في البيوت – عندئذ، سنة ١٩٤٧ مثلاً – وتنزل نشيطة ناهضة الصدر خفيفة الخطـو فـي جلابيتهـا البلادي لتأتي لهم بملء الطبق الصاج الكبير، بتعريفـة فـول

مدمس؟ أم كانت تبيع الفجل والجرجير الحزمة بمليمين على قفص الجريد المغطى بخيشة مبلولة؟

" في بداية شارع ترعة السواحل من ناحية المحكمـة بإمبابة كيت كات أجد كل يوم سيدة في الستين من عمرهـا تجلس في مفترق الطريق العمومي وتحت عمود الكهربـاء، في الرصيف الصغير الذي يفصـل اليمـين عـن الشـمال"

(شف دقة مصطفى محمد السمان وحفاوته بالتفاصيل!)

"وتفترش بقايا حصيرة وبجوارها بقايا بطانية وصحن وقلة وتجلس طول النهار وفي الليل تنام وتتغطى بالبطانيـة ورغم أنني تأثرت وأنا أراها تحت المطر إلا أننـي جلسـت أتعجب.."

(أين، يا ترى، جلس مصطفى محمد السمان يتعجـب، على الرصيف الذي يفصل.. إلخ).

" عندما رأيت كلباً يجلس بجوارها يحرسها من أقـدام المشاة ومن الأولاد، وعندما سألت عنها قال لي أحد البائعين إن هذه السيدة في هذا المكان منذ سنوات عديدة تنام وتستيقظ في الشارع ومعها هذا الكلب.." ٢ إبريل ١٩٨٧.

تنام وتستيقظ في الشارع..

أما في ٣٠ يونيو من العام ١٩٨٧ نفسه فقد كتب منير المسيري، للأخبار، من مدينتي العظمى الإسكندرية القدسـية الحوشية المهدرة والأبدية أنه قد:

"كشف بلاغ من أب بالإسكندرية عن جـرائم بشـعة ارتكبها طبيب بمستشفى الشاطبي باسـم البحـث العلمـي! اكتشف الأب اختفاء جثة ابنه الوليد بالمستشفى.. وماطلـه المسئولون بالمستشفى في تسليمها له.. وبعد أسبوع تسلم الجثة بدون رأس!!

"تقدم الأب ببلاغ إلى العميد محمد مكاوي مأمور قسم باب شرقي..

"كشفت التحريات أن طبيباً بالمستشفى يعمل مدرسـاً مساعداً بقسم البيولوجي بكلية طب أسنان الإسكندرية قـام بقطع رأس الوليد لإجراء أبحاث علمية عليهـا.. اعتـرف الطبيب في التحقيقات أنـه اعتـاد قطـع رءوس الأطفـال المتوفين الذين لا أهل لهم لإجراء الأبحـاث عليهـا.. وأن المسئولين بالمستشفى يلقون بجثث الأطفـال فـي حمـام المستشفى حيث يقوم هناك بقطع رءوسهم. وقال إن جثـة هذا الرضيع ألقيت خطأ مع هؤلاء الأطفال!!

أحيل الطبيب إلى النيابة.

وماله؟

البحث العلمي طبعاً لا يعني كثيراً باعتبارات أخلاقية أو اصطلاحات اجتماعية من نوع قديم الطراز.

وهل جاءت – يعني – على هذا الرضيع؟

فماذا نقول عن الكبار الذين تقطع رءوسهم – وأي من أعضائهم أيضاً – في كل مكان، ثم يلقون، هكذا، في المقابر الجماعية أو الفردية التي لا شاهد عليها ولا اسم لها؟

في كل مكان.. وعلى طول الزمن.

باسم البحث العلمي أو باسم أي شيء..

وماله..

ما أجمل أن اليقظة لن تأتي، يوماً.

سوف تحرمني الظلمة من جمال الظلمة.

تيقظت من نومي – هل تيقظت قط؟ هل أتيقظ أبداً؟ - في قطار السكة الحديد المألوف الذي لم أنزل منه حتى الآن، بعد قلق النومة على خشب مقعد الترسو الناشف المهتز، وجدت أن القطار يمشي ببطء في ساحة المحطة التي لا آخر

لها، القضبان المتشابكة المتشعبة هي هي لم تتغير، تتـوازى وتتلاقى وتنشق وتنعرج وتستقيم ولا تتشابك ولا تصل إلـى غاية، ووجدت أنني لا أعرف أين مقعدي الذي قضيت ليـل العمر الطويل عليه، جعلت أقطع القطار، أذهـب وأجـيء، أبحث عن مكاني، أجد الكراسي مائلة ومخلوعة ولها ظهور نصف مقصومة وناتئة العظام الخشبية وقـد طلـع الحشـو البلاستيك منها في نتف إسـفنجية الشـكل وقـذرة. ألقـى الكمساري فيقول لي بانكسار: "العربة نمرة ستة، أنت طلعت العربة أربعة. ليس هنا. ليس هنا".

وكأن عربات القطار تتكرر وتتزايد وتتمـدد أمـامي، تختلط أرقامها علي، أسأل الركاب، نصف نائمين، لا يجيبني أحد.

تنظر إلي المرأة الهائلة الأعضاء في ملايتها اللف التي تسقط عن كتف مدملجة مدورة – كما تسقط دائماً هذه الملاية اللف – ليظهر تحتها قميص نوم ساتان عريض الحمـالات، مبهم اللون غير نظيف تماماً، نظرة خاويـة إلا مـن مـلء الجسد الركين، لا تجيب بل كأنها هي التي تسـأل، بعينـين فيهما غياب.

يشيح عني العجوز، في جلابيتـه البلـدي والبـالطو الخفيف القديم المصفر اللون، هل هو بقال؟ بوجهـه المقـدد حاد العظام وفمه المزموم كأنه لايريد أن يراني أصلاً، مـع أنه يعرف أنني أقف أمامه، أسأل أين أنا، أين أنا؟ كأنه يريد أن ينفيني. يا عم، ناقص أنا منفى؟

القطار يهتز، أحس أنه يسير، لكنه لا يقطع شوطاً أي شوط كأنه يراوح في دق عجلاته الحديدية التي تكشط جدران نفسي.

وأظل أمر عبر اختناقة الصبح التي لا تنجاب، عبـر الوصلات الحديد المرتجة بين العربات، من بـاب حديـدي مفتوح إلى باب، يلفحني هواء فجر بارد ومغيم.

هل أنا في محطة مصر، في اسكندرية، مسـافر إلـى أخميم، في محطة كوم حمادة، قادم من الطرانة، في إيتـاي البارود؟

لا أجد، ولا أعرف، أبداً أين أنا؟

أين أنتم؟

النزوة السابعة

في نور الثمل الساطع

تفجر العالم بالثمل الساطع
أسلمته النشوة إلى النشوة المدمرة
سقطت أمطار حارة تغلي
وعندئذ ترقرقت شعاليل اللهب، بوداعة
العالم ناصع متقد يتأرجح على حافـة حفـرة الظـلام القديم
يهتز على حرف الجرف الحاد يميل نحو التدهور مرة واحدة وأخيرة
لكنه لا يتردى
يتمايل فقط على شفرة السقوط
نزا بي قلبي
تحترق السماء بين أصابعي
وتذوب
لم تبق إلا يداي

شجرتين في المنتهى
مشتعلتين بلا انطفاء

ورأيت أن مدينتي مدينة النحاس والفيروز مضروبة.

دخلتها من تحت عقد بيضاوي هائل سميك في بوابـة حجرية ضخمة الكتل، الباب الخشبي المصفح بمسامير غلاظ قد انفك وانعوج وغرزت أطرافه في الأرض، بثقل.

وكأن الأرض تحت المدينة قد هب صـدرها بأنفـاس زلزال مضمر مكتوم، لم ينفثيء، تفتق أديمها بشقوق متعرجة عميقة الغور، وتقلقلت جنوبها المثخنة بالجروح الجافة.

وكأنما نسيت، وإن لم تكن قد اندثرت.

أكوام الأنقاض العالية غير المنتظمة تهاوت، كأنما من زمن بعيد، وتحللت، أحدس من شكلها أنها هشة جداً صامتة.

ليس في المدينـة النحاسـية التـي انصـهر معـدنها ثم جمد، شيء. ولا أحد.

كل الأبواب الساقطة مفتوحة بل فاغرة عن متاهـات الخراب.

وكأنني أعرف – فقط – أن هناك مناطق مخصوصة، منوعة، يقطنها الزعماء، مختفين في أقبـاء غـائرة مقـواة

ومكيفة. من هناك تصدر الأوامـر لسـكان المدينـة غيـر الموجودين. مازالت تصدر من علٍ.

مناطق ليس عليها إشارة، ولا كلمة مكتوبة من الكلمات التي لها معنى.

ولكن الحظر، والطابو، والقمع المستكن تجـثم، غيـر مرئية وإن كانت محسوسة بل رازحة الحضـور. التحـريم ماثل وقائم وإن كان غير ذي جسم.

هل هذه كلاب كاشرة عن أنياب صفراء مسننة طويلة بشكل غير عادي، واقفة بتربص بـلا حـراك؟ أم تماثيـل نحاس؟ لم ينلها التحلل العام؟

هناك غمغمة كهربائية لها صدى آلي أجوف وغـائر وغير مفهوم. وكأنها تلاوة ضاع معناها واندغمت تنغيماتها. هل هي أسجاع كهان أو أشعار غواة؟ تتردد في جو المدينـة الخاوية، تصدر عن ميكروفونات منبعجة الحواف ومتغضنة ولكنها مازالت منصوبة ومفتوحة على تلال الحطام المنهار، شرائط التسجيل المغناطيسية الرفيعة ملتوية ومتراكبة وممتدة وملفوفة على بعضها بعضاً، كيلو مترات منها مرمية متدلية ناتئة ومتساقطة من الركام والهدد اليابس المنساب.

أصل إلى ما يوحي إلي بأنه كـان الميـدان الـدائري الصغير الذي كان ينتهي إليه الترام، ويقفل راجعاً، لكنـي لا أجد إلا أكوام الحجارة الخشنة والرمال وأغصـان أشـجار محترقة متفحمة.

فجأة تظهر ورائي سيارة مقفلة، مهددة، مندفعة نحوي، وكأنما تنوي في شر واضح أن تلاحقني، وتظفر بي، وكأنما هي قادرة على أن تصعد، ورائي، ركـام الحجـر والملـح الصلب.

الشارع يضيق بي، أكتشف فجأة أن تلال القمامة تسـد علي كلّ طريق، نتنها لا يطاق، والمطر يسقط عليها وعلـى كل شيء في صبح هذا الصيف الحار.

مازلت أحاول أن أصعد. لـيس أمـامي مـن مـلاذ إلا الصعود فوق الحطام، أتلمس بيدي الجـريحتين خشـونة صفحات الحجر وحدوده التي تكشط جلدي، أتشبث بالرمال. متى ينتهي طراد الأحلام؟

متى الأحلام الصيفية تكف عن مطاردتي؟

النافذة العريضة الواسعة مفتوحة أمامي، على مصراعيها، لا شيء يحجزني عن التردي في هوة الضوء الفاغر.

يغويني التدهور، وأنا محمول على أجنحة الضوء غير المرئية .

يغويني.

حضور أنثوي أعرفه، أحسه في الظل، خلفي. لا أتبينه تماماً، لكني أعرف تماماً دوران هذا الردف المحبوك في التايير الداكن، أعرف لفة الكولان الشفاف بسمانة الساق العبلة. ساق كأنها وحدها، لها حياتها. لا صلة لها – هذه الساق – ببقية الجسد. وأعرف أيضاً رهافة هذا الخصر الهفهاف المتين معاً، وانحداره الممتلىء بجسدانية النعم.

لكنها تعطيني ظهرها، لن تلتفت نحوي أبداً. هذا أيضاً أعرفه.

وعبر الضوء المعشي الذي لا قرار له، ومن وراء الجسم النسوي الرقيق الركين معاً، عدت إلى قرية اسمها عزبة ونيس من أعمال مديرية (محافظة) البحيرة. زرتها

مرة مع خالي ناثان في أول عام من الأربعينات البائدة، قال لي خالي إن عزبة ونيس فيها عدد من عـائلات الأقبـاط لا يزيد عن خمس عشرة، عشرين عائلة. وكنت أعرف أن منهم أسرة كان خالي سوف يناسبها، بعد ذلك بقليل حدست ذلـك بفضول الصبا الأول وحرارة المراهقة، وعندما رأيت الست هيلانة سيداروس، صبية غضة الوجه لكنها هائلة الأنحاء، لا تكاد لفرط جسامتها تطيق الحركة، سحرتني العلاقـة بـين خالي وزوجة خالي المقبلة.

قال لي إن سائر أهل عزبة ونيس من المسلمين قال لي ما كنا لنحس بذلك أصلاً وحياة المسيح إلا لسبب واحد، ليس في العزبة كنيسة.

كنا في طريقنا على العزبة، على الحمير. خالي علـى الحمار الأسود الضخم ثقيل الجسم راسخ الخطو لكنه سـريع قوي، وأنا على الحمار الأرمد الصغير المتـوفز بالعفرتـة والخفة والذي كان علي أن أشكمه بنخس رجلي، بشدة، فـي جنبيه، وشد اللجام، والتحكم، بدقة، في حبل العنان.

في الصبح البدري كان التراب الناعم يثـور ويرتفـع تحت حوافر الحمارين، ونحن نحث السـير علـى الجسـر

العالي، والنيل، في برمودة، منخفض تحت الجسر، مخضـر المياه قليلاً وهادئ الجريان. كنا في صبيحة عيد القيامة.

كان قد قال لي نذهب نعيد على الجماعة ونعزم عليهم للغدا معنا، من طبيخ ستك أماليا، طبيخ العيد بقى.

وكانت الفسحة مثيرة، وهواء الصبح فيه لذعة طراوة حلوة، بينما حرارة الرمح على صهوة الحمار أحسها تغمـر وجهي.

وعندما وصلنا مشارف العزبة، ودخلنا حاراتها الضيقة المتلوية، وشكمنا الحمارين إلى خطو مترفق وئيد، رأيت عم محمد عباس، بعمامته البيضاء النظيفة، ووجه داكن السـمرة ولكنه صبوح مشرق وباسم – مازلت أرى أن سنته الأمامية كانت ناقصة مما جعل ابتسامته، بشكل ما، أظرف وأوقع.

كانت معه، ع الصبح، جماعـة مـن أهـل العزبـة بالجلاليب النظيفة المزهرة والمراكيب الجديدة التي تبدو لـي ناشفة قليلاً في الأقدام الضخمة غير المعتادة عليهـا، واللبـد البني والسوداء كاملة التدوير على الرءوس الحليقة.

كنا قد ترجلنا، فما يصح أن نظـل راكبـين، وسـرنا وراءهم ونحن نمسك في أيدينا مقودي الحمارين.

ورأيت عم محمد عباس – خالي ناثان قال لـي علـي اسمه فلم أكن أعرفه من قبل – يدور على أبـواب الأقبـاط، واحداً واحداً، يقرعها بقوة وفرح، ومعه جماعتـه، ويـردد: اخرستوس انسطى، ويأتيهم الرد، بقوة وفرح، مـن داخـل البيوت: اليسوس انسطى.

ولم يدر بخلدي – كما يقـال – أن ذلـك مسـتغرب أو غير مألوف، كنت أعرف أن الفلاحـين لا تعـرف مـن شهور السنة إلا أسماءها القبطية المصرية القديمـة، تـزرع وتقلع وتجمع عليها، ويعيدون الآن على جيـرانهم بالقيامـة: المسيح قام، بالحقيقة قام.

أيامها كان ميخائيل رئيس الملائكة قد دحرج الحجـر الهائل الثقيل عن فوهة باب الموت. أيامها سطع النور .

لم الحجر الآن رازح لا ينزاح؟

أين بهرة النور؟

قوة الملاك ليست إلا في أصابعنا المشدودة المعقـودة بعضها على بعض، حتى لو تشققت، حتى لو انقصمت، تظل فعالة.

حكى لي خالي ناثان أنه كان هنا يوم الأحد الذي فات أيضاً، أحد الشعانين.

قال إن أقباط عزبة ونيس كلهم، عـائلات سـيداروس ورزق ونخلة وروماني وأبادير وولسن وغطـاس وفـانوس وعازر وويصا وزخاري وفـام وببـاوي وقـوس وسـكلة وتودري، كلهم كلهم، الشيوخ والكبار والأطفال، والنساء في جلاليب العيد الحريرية الملونة وعلـى رءوسـهن الطـرح الشفافة النسيج، خرجوا يركبون الحميـر والبغـال وفرسـاً أو فرسين أيضاً في قافلة بهيجة ذاهبة إلى الكنيسة في قريـة ميت وهيب المجاورة، على بعد عشرة كيلو مترات تقريبـاً، على الرياح البحيري، يهزون سعف النخل الأخضر الوارف، مازال بعضه غضاً طريـاً يكـاد يكـون شـفاف النسـيج، والصلبان، و"شبابيك القدس" التي سهر الصـبيان والبنـات يخصفونها من الخوص، وهم يرنمون ويصـيحون: أوصـنا يا بن داود. هوسانا، هوسانا أيها الداخل إلى أورشليم.

قال د. صليب بطرس، في شهادته يـوم ١٥ أبريـل ١٩٩٠ في "وطني":

"ويستقبلهم بالبشر والترحاب وبالعبارات الحلوة كـل من كان يقابلهم في الطريق، أذكر بيقين أن أحداً من الإخوة المسلمين لم تصدر عنه عبارة نابية كالتي نسمعها الآن من أقزام أكل قلوبهم البغضاء والحقد الأسود".

أما التنين فقد كان يضحك عن فمه الواسـع العميـق الذاهب بعيداً إلى ظلمات جوفه وأنيابه الكثيرة المسنونة، وهو يرفع الكأس في يده ساقه الأماميـة الصـغيرة المدموكـة، بأصابعها الثلاثة المتلاصقة تقريباً، وتجري الراح مسـكوبة في حنجرته الهائلة بصوت رقرقة منسابة.

كان مستنداً إلى ذيله الملوي، مسـتكيناً الآن مطويـاً تحته، وحراشيفه الحادة القاطعة تغطي الجسم الضخم الـذي يملأ علي الأرض برائحة فذة فيها من نفث السمك وعشـب البحر وفيها من حوشية عنبر الصواري ومن ضربات نفـج الزواحف الكبار.

وكانت عيناه المدورتان الجاحظتان عاقلتين وفاهمتين. فيهما رحمة، فيهمـا جبـروت. قلـت: ليسـتا بالضـرورة متعاطفتين. فهل هما معاديتان.

أم محايدتان؟

لا شأن له بي حقاً، مع أنه يشرب الـراح معـي فـي الصيف متقد الوهج الذي يتدفق بنوره من طريق خاوٍ حجري وموحش، عبر النافذة المفتوحة التي تأخذ مكان الحائط كلـه، تعشي بصري، فلا أراه إلا في عكس النور، كتلة من الظلمة المجسدة، ينساب ضوء خاص جداً على جنبيه المنزلقين..

وكنت أشرب معه نخب موتي.

في نور الثمل الساطع وأنا كلي نكران

خمر السماء صهباء متوهجة.

"أيدت محكمة القـاهرة للجـنح المسـتأنفة برئاسـة المستشار إسماعيل حمدي الحكم الصادر بحـبس ٣ تجـار شهراً مع الشغل لكل منهم لأنهم ضبطوا على كورنيش النيل بالمعادي وهم يشربون البيرة وكانوا في حالة سكر شديد".

"أخبار اليوم ٣ نوفمبر ١٩٧٩".

أما أنا فقد كنت عارياً أمام عينيه، لا أحتاج إلـى مـا يغطي جسدي لم يكن ما بيننا مما ينقال، أو يمكن أن ينقال.

لكنه – هذا الذي بيننا – كان هناك، ناطقاً مـن غيـر نطق بكل حشاي وكبدي. كان ساطع الوضوح في دخيلتـي، في تلك السريرة الكامنة التي تنكشف الآن في هذا النور.

عجين الحب والألم.

استصراخ لعدل في الكون يقول عن نفسه إنه مستحيل وإنه قائم، وممكن، وقادم، في آن. ولحنو مسـتحيل. وفهـمٍ مستحيل.

الملكوت والصلبوت على ناصية منحنى الطريق.

الشمس تضرب الطريق إلى دمشـق بحـرٍ لا يطـاق وما من صوت.

ساق أنثوية مبتورة، لا علاقة لها ببقية الجسد، لكنهـا حية، تسير وحدها في الشفق، تضـرب بفـردة حـذائها ذي الكعب العالي، على رخام النور الصاب، تدقدق عليه بسرعة وانتظام، لها صدى. أحس نسيج الرخـام الشـفاف تتفتـت خيوطه الملتصقة بجذاذات قلبي. دامية.

بينما كأس موتي تدور.

ضحكته جشاء من جوف عميق.

أيونان أنا؟ أم شحاذ ملقى بي، بلا نجدة، على الطريق؟

أما هو فقد قال بالأمر الذي لا نقض له.

بعد أن شربنا، دعا بالسيف والنطع.

رأيت رأسي يتدحرج إلى الأرض، مفتـوح العينـين، وكأنــه يــدور فــي قلــب قــرص الشــمس المتقــد، في صباح يوم "النقطة"، في قلب الطبق النحاسـي المكفـت مفروشة فيه الآيات والأشعار تغوص في لحمـه المتماسـك بالصدف اللألاء والعاج.

ثم رأيت رأسي مرشوقاً في سن رمح طويل مغـروز في الأرض تحت بوابة أبو الفتوح تطـن حواليـه سـحابات الذباب ولكنها، بشكل ما، لا تحط عليه.

كان الرأس ثملاً وسكره ساطع.

و"مسكنه نور لا يدنى منه"

كنت أنا الآن التنين.

ودخلت، على هيئته ومثاله، غير مرئي، إلـى ميـت وهيب، مديرية البحيرة.

كانت صلاة الجناز قد أقيمت في الكنيسة القديمـة ذات القبة الخشبية العالية، لا يكاد ضوء الشموع يبـدد عتمتهـا. وخرج الموكب المختلط المضطرب من الباب الغربي، وراء الصندوق المحمول على أكتاف المشيعين.

كنت أضرب التراب بحراشيف ذيل قـوي، أزحـف كجحفل من قوات الموسيقى. لا يثور لضـرباتي هبـاء أي هباء.

وفي الوقت نفسه يتقدم الشمامسة وأراخنة القرية وراء الصندوق – هل كنت أنا في جوف هذا الصندوق؟ أيضاً؟ - أهذا الموكب المترب في الحواري الضيقة المتلوية مـوكبي الأخير؟ كانوا يحملون الصليب النحاسي الكبير لامعاً في حر الضحى، فصوص ياقوت حمراء تبرق على أطرافه المتشعبة على هيئة ورق نبات عريض، تومض في الشـمس وتشـع وتختفي، يرفعون تقدمة التراتيل بالقبطي والعربي، بصـوت مرنم موقع له سطوة التنغيم العريق.

قال:

"في الطريق كان التجار يغلقون متاجرهم تحية للميت كلما مر أمامهم وكان يصر إخوانـا المسـلمون علـى أن يشتركوا في حمل صندوق الميت إلى مثواه الأخير. وكـان الأقباط يصرون أيضاً على الاشتراك في حمل نعش الميـت من الإخوة المسلمين. ولا يزال إصرار الإخـوة المسـلمين

على حمل نعش والدي طيب ا   ثراه ماثلاً أمـام عينـي لا يبارحهما..."

"أما الآن..

"في إحدى زياراته لي قبل وفاته منذ ما يزيـد علـى أربع سنوات سألت القسيس كيف الحال في القرية، أجـاب، والدموع في عينيه والحسرة في قلبه، بصوت متهدج: كلما مررت في شوارعها رماني الأطفال بالحجارة مـع بعـض الألفاظ النابية".

"ماذا دهاك يا مصر على أيدي أناس قلـوبهم هبـاء ونفوسهم خواء".

"أين راحت الصور المشرقة؟"

فهذه شهادة من بين شهادات كثيرة، لعلها أكثـر ممـا ينبغي. فقط لأنها كلام. وكلها تنحو نحو نغمـة الميلودرامـا والنواح على الذات، حتى لو كانت كلها صادرة عن قلـوب تتفطر حباً.

هل أنا أيضاً أتدحرج نحو الميلودراما؟

كيف النجاة من الميلودراما في حقبـة كلهـا فواجـع متصلة؟

يااااه...!

ليتني أعرف كيف أقول صرامة الفاجعـة، ونسـكها القاسي.

دون سقوط في أسرها.

ودون السخر منها.، على السواء

"لجج يمجن على جنوب سواحل"

لجج الروح، والوطن.

يضربن أضلاع الشطوط بمائهن العكر بالـدم الـذي لا غيض له. كأنهن حيطان الزجـاج لا يخدشـهن قصـف الحراشيف العنيد.

وموجهن الجياش الملتطم ثابت وراسخ لا ينقض.

النزوة الثامنة

"دندرة" أندانتي

ألقت "دندرة" مرساها بالليل في حضن النيل، ونامت.

أيقظني فجر الصعيد.

لم تكن الشمس قد طلعت بعد، لكنها كانت، مـن الآن، تغمر العالم بنور هادئ ودافئ. وفي هذا الغمر المشع بضباب ضوء غير قوي كانت الزروع الغامضة على الشطّ البعيـد، والحلفا والهيش أعوادها الرقيقة ملتفة صاعدة مـن المـاء، تكسوها غلالة بيضاء شفافة متراوحة الحركة مـن الصـقيع الذي يتبخر بسرعة، ويتطاير مزقاً متطاولة مدببة الأطـراف تتلاشى في الهواء الساكن بمجرد أن تتلوى ذؤاباتها العلويـة المستدقة.

السكون سائد، والصمت المطبق يؤكده وشيش المـاء الهين إذ يلتقي بالشط، لا نأمة ولا حس. أعرف أن ذلك لـن يدوم إلا هنيهة، قبل يقظة الطيور.

طيور البلشون نائمة وهي واقفة على رجلها الواحـدة في رقرقة التقاء الماء بالأرض، رءوسها محنية بلا حـراك على المويجات المتسايلة برفق على الطين الرملي الذي أرى بياضه المخايل، من بعيد، وأنا على حرف المركب العتيـق. يتمايل بأهون حركة لا تكاد تُحس. الهلب الحديدي ساقط في العمق. ونحن في وسط النيل.

الشمس الآن قد اخترقت سحب الصباح الأول. سـطع حرها، ببطء.

عقبان الجبل تدور في السماء العاليـة، سـوداء فـي النور، جليلة، آمرة، وافدة من ناحية الجبل الشرقي القريـب المطلّ على شريط ضيق مـن الخضـرة، يمتـد متعرجـاً ومحصوراً حتى يسقط على جنب النهر العريض.

وكأن "دندرة" تطفو على مياه حلم.

النيل ساجٍ وعميق يحضنها يخفيها عن الصبح. عـن الزمن.

ثم ارتفع الهلب، وسار المركب، كأنما من تلقاء نفسه، صوت المحرك خافت منتظم رتيب كأنه نبض مكتوم.

نقترب الآن من الجزيرة الصخرية الشاهقة، تظهر شيئاً فشيئاً، تصعد من قلب أبخرة الضباب الأبيض المتطايرة ذوائبه في خصل متحللة.

قيل: لا تظهر إلا مرة واحدة في السنة.

قيل: لا يراها إلا من كُتِب له أن يراها.

قيل: تمر المراكب فيها أحياناً، لا تراها، لا تصطدم بها، تخترقها من غير أن تحس.

قيل: إلا من ضربت عليه النعمة.

قيل: ويأتي من كتبت لهم القسمة، ويذبحون الأضاحي على منصات الجرانيت المنصوبة أمام العتبات، الخراف والمعيز والعجول والثيران، وتنساب الدماء في المجرى الدقيق المنحوت في قلب الجرانيت ثم تنصب على الشط، تتشربها الرمال التي لا تشبع.

قيل: سحابة النهار، من طلعة الشمس حتى مغيبها، فقط. ثم تغوص مرة أخرى. إلى أن تطلع في السنة التالية، على غير ميعاد، في يوم ما، لا يعرفه أحد، لا يراها كل أحد.

حطت "دندرة" بهدوء على شريط رملي ضيق متعرج فوق جرف صخري عميق ذاهب إلى غور بعيد في النيـل، منحوت وقاطع الحافة.

وقفز عم شاذلي برجليه الجافتين العاريتين من علـى حرف المركب إلى هذا الرصيف الطبيعي القديم، في وثبـة واحدة. كأنه لا جسم له، وربط الحبل المتين الغليظ في نتوء صخري مدبب كأنه معد سلفاً. فثبت المركب، واستقر.

أما نحن فقد نزلنا، من غير صعوبة، إلـى الشـريط الرملي الضيق، على سقالة خشبية مضلعة، لها حزوز ناتئة. أحسست صلابة الصخر تحت قدمي، من تحت طبقة الرمـل الناعم الشحيح.

هل كنا جماعة من الأخيلة، بلا جسوم؟

لماذا إذن كل شيء محدد، ولماذا النور صاب ونقـي ولا تشويه هبوة، كالماس الصافي؟

كنا على بعد ألف كيلو متر من البحر ولكن النـوارس انطلقت فجأة، من مخابئ لها على الصخر، تزعق بصيحات ثاقبة ثم تسكت.

وكان أبو نقار قريباً مني جداً، أسود الجناحين ناعم الريش، يحوم ببطء، صامتاً، في دوائر واسعة تضيق بالتدريج، ثم ينقض مرة واحدة بمنقاره المسدد الطويل.

ودخلت.

الأعمدة الأسطوانية مسحوبة من تحت ممتلئة عند سمانة الساق تنتهي إلى أكاليل اللوتس الملتمة المضفورة غضة الحجر.

وصلت إلى ساحة الشموع.

وعبرت إلى العقود الدائرية المخططة بلونين عريضين البني والأبيض على التعاقب والمقرنصات المثمنة والأعمدة الرخامية المصقولة رشيقة متوجة بأكاليل الغار الروماني المقهور.

تحدق بي وتحدق إلي وجوه حتحور المسطحة بعيونها النجلاء المستطيلة وآذان البقر الدقيقة المفلطحة على جانبي الخدود العريضة وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة العارفة جسمها طري ومتماسك معاً يدر جلدها البلوري الأسمر بلبن غير مرئي طعمه الحلو في فمي المضموم.

انفسحت الردهة المستديرة تحت قبـة عاليـة مقمـرة متناثرة النجوم تمتد خيوط نورها إلى أيقونات خشبية معلقـة على حجاب الهيكل المطعم بالعاج والأبنوس.

الدروع والخوذات المجعولة من حلقات حديدية دقيقـة متشابكة معلقة على جدران عريضة الأحجـار تنفـتح عـن مشربيات خشبية رائقة التشكيل لا تنتهي العين مـن تملـي تشابيكها.

ركام قمامة التحديث والتصـنيع والسـوبر ماركـت والبضاعة المسمومة بالأصباغ والكيماويات والفيروسات.

وتطير حوالي الصقور الملكية الدقيقة والحدأ مبسوطة الجناحين ماسكة مفاتيح عنخ وريش معت وتلتف بي الثعابين المتوجة المتموجة وتعود إلي طيور أبيس المنقرضة واقفـة بجلال على ساق واحدة تحت نظرات تحوت القـرد الحكـيم بينما تزحف الجعارين بتصميم وعزم تحت سيقانها المغمورة في الأرض المبلولة بطبقةٍ رقيقة من الماء.

رائحة البخور البونتي وخشب الصندل المعطر وذوب الشمع وفوح الأواشي والتراتيل بالكلمات العتيقة المكرسة منذ القدم.

النخل ينوس في أحواش الـروح الداخليـة المكنونـة بسعفه النجراني يلقي بظلاله على ثمار الرمان على بز أمـه تبض حباته الوردية بالشهوة.

امتدادات الكباري الخرسانية التي تنتهك جمال المعمار الغارب وتقتحم عليه مكامنه الرهيفة.

الهواء الآتي من غور الدهور يهب علي في دهـاليز الروح المتحدرة المطبقة علي لا تكاد تسري جسومنا منهـا محنية الرءوس إلى الأبد تقديساً وإجلالاً ودرجات السلم تحت الأرضي لا انتهاء لها.

ترانيم الأبصاليات والذكصولوجيات بـالنغم العريـق الممتد على دقات المثلث النحاسي له صـدى فـي ردهـات السرائر لا يضيع.

وإنشـاد الـذكر المتصـل نشـوة الحميـا عضـوية وميتافيزيقية شطحات الأجسام المتمايلة في متاهات الغيـاب في سكر الحب الإلهي تواشيح المـدائح تمتمـات غرائـب الكلمات.

أحجار الدهور لا تبلى وإن تحيفتها السنوات التي بـلا عداد أعرف اطمئناناً وراحة وعودة للوطن العتيد حتى فـي ضيق الحيطان الألفية وفي دخيلة مساربها الخفية.

كانت الجمال تقف جامدة بصبر في ظـل الصـروح القديمة تنتظر اللانهاية.

ثلاثة أربعة جمال فقط ممدودة الأعناق نحـو الرمـل ثابتة العيون.

بينما يموت الرجال والنساء عطشاً مرميين على الرمل أيديهم ممدودة نحو الماء لا تصل إليه كأنما يعـوقهم حـاجز غير مرئي لا قبل لهم به والنخل فوقهم قليل ونحيل، سـعفه مترب جاف الحفيف، ظلاله تكاد تكون شفافة.

وجوههم التي تململت وتمرغـت وتضـرمت ظمـأ لا يستطيعون الآن رفعها لم تعد فيهم منة لا طاقة بهم علـى الحركة.

عطش الشبق من غير يقين عطش الهوى من غير ري ملقى بهم نصف عراة ملتفين وملتفات بملاءات كانت بيضاء وقد اتسخت الآن وتربت وبها بقع مصفرة داكنة بين الأفخاذ.

الأفخاذ النسوية مازالت طرية غضة وإن كان فيها ما يؤذن من الآن بالجفاف الوشيك والأثداء متهدلـة ومسـحوقة ومنبعجة ومطوية تحت الصدور عليها ذرور الرمل الأصفر الدقيق الحبيبات.

جذوع الرجال كنخل ثاوٍ مضروب مـازال منتصـب العود وإن كان مخلوع الجذور أسمر الحراشيف العيون قـد خبت أو كادت ولكن مازال فيها بريق عنيد تـومض منهـا سنان الروح الحاد غير المنكسر.

ورأيت أن جدائل النساء أثيثة عميقة السواد وللرجـال شعر أكرد منفوش.

يا لؤلؤة النسوان مازلت أذكرك ميتة من العطش كأس وردتك القانية بين أعشاب ساقيك الطرية مبلولة حوافها بطعم خمر حريفة صهباء لا ينتهي السكر بها.

انحلت أوصالك بين ذراعي صـدقاً أم كـذباً لا يهـم وقد هلك على يديك الرجال وهلكت من فرط ظمأ شبقك مـن فرط افتقادنا، وإتياننا، فنون الوصال.

ها نحن، أخيراً، جماعة الأخيلة.

عناقيد ديونيزيوس قد أرتوت من الفيضـان وطميـه الأحمر نبيذها مرمي على العتبات المحفورة بالخط العتيق.

صروح الصاب والزجـاج المـدخن أبـراج الشـقق الصناديق المؤثثة بـأجهزة الغسـيل والتبريـد والتجفيـف والتسخين واليكترونيات الحسابات والجداول والأرقام.

تشوق الموج الحبشي المدوم سمكات موشومة بخمسة حروف أبدية والصلبان مبثوثة على وجه القمـر مزدهـرة الذراعين والساق تسبح بهدوء يغمرها موج شفاف وينحسر.

صور الخيالات المتعاقبـة علـى ضـجيج الصـنوج والأرغن الكهربي وانصباب الموسيقات المعلبـة المحنطـة ميكانيكية الصدى.

بينما تفيض قطرات الدم الإلهي بلون نبيـذ الأباركـة القاني الداكن على سخونة الخبز غير المتخمر الحـي أبـداً المطعون خمس طعنات.

زعيق المحركات.. ما أشـد اختلافـه عـن زعيـق النوارس لا يتوقف في داخل حيطان القمع والكبت والضيق.

الأواوين مفروشة بالقصب منصوبة علـى سـجاجيد عجمية وثيرة تحت المشكاوات النحاسية التـي يتقطـر مـن

زجاجها الكتوم ضوء منمنم مهندس التقطيعات ينسكب علـى أغصان الأشجار المورقة وسلاسل الذهب.

طلقات الرشاشات تصوب على موتوسيكلات هادرة لها أنين وأزيز وتصوب منها، قتل الجسوم قتل الفكر قتـل كـل اختلاف.

الإبر المسلات أعمـدة الأجـراس المجلجلـة مـآذن المواقيت تصعد متواشجة في وميض آفاق صعيدية متوسطية صحراوية معاً مفتوحة سمحة مذهبة مخروطية الذرى رمال السماوات أمواجها صخورها نهرها الجياش لا يقوى عليهـا الزمن.

وعندما خرجت كانت أسراب الوز تنسـاب بسـكون رافعة الرءوس طويلة الأعناق على مياه الشط الرملي، والبط الصغير يتدأدأ على أقدامه المفلطحة وينزلق فجأة إلى المـاء ليطفو وهو يبطبط بصوت رفيع.

أما هو فقد كان راكعاً على ركبتيه في سـاحة الشـط الرملي، حافياً، مغلل اليدين وراء ظهـره بأصـفاد حديديـة ضيقة، حافياً، لا تستره إلا خرقة بيضاء ناصعة ملفوفة حول حقويه وفيما بين فخذيه الناحلتين.

كان نقي النظرة مع ذلك في وجه جلاديه.

وكان القضاة الجلادون ملثمين، جالسين براحة وثقـة، مرتدين

الحلل السوداء المحبوكة وعليها الأوسـمة والأنـواط القماشية الملونة مخيطة في النسيج الأسود الحالـك السـواد، أحذيتهم الجلدية العالية لامعة تصل إلى ما تحـت الـركبتين بقليل، متمنطقين بمسدسات ضخمة عيار ١١ مليمتر تحـت الأحزمة الجلدية العريضة، وأمامهم على الرمل بنادق آليـة رشاشة غليظة الأنابيب مصوبة نحوه.

وفيما كان قضاته جلادوه الثلاثة – لا تبدو من لثامهم إلا عيون قصدها واضح الشر – أمامه، تحت ظلة منصـوبة على أوتاد خشبية طويلة والمراوح الكهربية الضخمة التـي تشغل بالبطاريات القوية تئز وتصنع دوامات متناوبـة مـن الهواء الرطب، كان رأسه مكشوفاً تحـت وقـدة الشـمس، مرفوعاً، وكان الرجل أصلع وعجوزاً.

قالوا: أنت ارتكبت إثم الكبرياء.

قالوا: أنت طلبت الحرية وطاولـت بقامتـك الهزيلـة قامات الآلهة.

قالوا: خطيئتك الكبرى أن سعيت إلى المعرفة، وفـي سبيلك إليها خالطت الغرباء والمشبوهين.

قالوا: كيف جرؤت أن تقول – بل أن تفكر – ما يغاير المكرس المأثور.

قال: ليست هذه آثامي. بل هي إن صحت فضائل ليتني أملكها.

قال: يا أسفي! أنتم الخطاة.

ولم يزد

كانت ركبتاه اللتان تحتكان بالرمل والحصى الصـغير تنزان بالدم النزر، وكتفاه موجعتان، مثقلتان.

قال لنفسه: ألم تكن تقدر أن تعبر عني هـذه الكـأس المرة؟

قال: لا في المجد. بل في الانكسار.

وسمع الجواب: لا.

كان رافع الروح.

وما قتلوه وإن كان الحكم غير المنقوض قد صدر.

وعندما التفت وجدت أن "دندرة" خاوية، هجرها الريس شاذلي ونوتيته الصعايدة الأشداء إلى غير عودة.

وكانت الأمواج تضرب جنوبها برفق، بصوت ملامسة مائية نسائية شبقة.

وعلى الشط الآخر الذي يبدو بعيداً جداً، وكأنما باتفاق مسبق أو وفق إشارة خفية، انطلقت في سحابة واحدة مرفرفة مئات طيور الخطاف والقطا النيلي والزرازيـر والعصـافير البلدي وعصافير الجنة معـاً، مندفعـة كالسـهام، تزقـزق وتشقشق وتسجع وتغرد تعلو وتهبط وتهب وتطفو فوق سعف النخيل الواطئ الذي يكاد ينوس يلمس صفحة النيل مائلاً من فوق الجسر الترابي المتحدر نحو الماء.

ورأيت صدفة هائلة من قواقع الدر الكمـين، خاويـة، مفتوحة، وردية اللحم، لدنة وصلبة معاً، مثل جسد أنثوي.

وكانت الجزيرة الصخرية تغوص بما عليهـا تحـت الموج، تصعد مياه النيل المخضرة ذات الزبد القليل المرغي على شطها الرملي، ثم صخورها، ثـم صـروحها، فقـاقيع الهواء الكبيرة تصعد، من بين الأعمدة والمصاطب والهياكل والمسلات، وتنفجر، على السطح، بصوت فرقعات مكتومة.

هل رست بي ريـح الهـوى علـى سـاحل التهلكـة الصخري، يطفو عليه زبد الملح الذي لا يكف عن الترغي؟

في مسارب الظلمة تتكسر السهام ولا تصل. لأن الريح قاسية.

هذه المسارات فاحمة الحيطان يتراكم فيها ثلج آسـن، شفق خامد يخيم على شاطئ الوحشة النهائية الذي خلقته نزوة شطط.

ذابت الفضة الدافئة وبردت في ثنايا صروح الصخر.

أعددت لنفسي قطعة النقد البرونزية قبـل أن أدخـل، أعددت ثمن العبور في الظلام، لا أدري، هل يخونني مـلاح نهر "استكس" المخوف؟

لا، ليس مخوفاً، الخيانة هي التي تخيف.

القطط وبنات آوى والضباع والحدأ عريضة الجنـاح تنتظر.

كيف تتقد تلك الشعلات مضطربة النور على السـاحل المقفر؟ مم جاءت؟ متى تنطفيء؟

أيناي من شاطئ مرساي؟

وهل لي – حقاً – بر أرسى عليه؟

النـزوة التاسعة

الباب الأخضر

قالت لي: العنوان سهل. لا يمكن أن تتـوه: ٩ البـاب الأخضر، في سكة الجمرك.

ولما كنت أكن للرقم٩، من أيامهـا، إجـلالاً خاصـاً – أقرب إلى السحر عندي الـرقم ٩ – ولمـا كـان البـاب الأخضر أيضاً يوحي بالتفتح والنفاذ إلـى آفـاق مزدهـرة بالخصب والحياة، فقد وافقت.

طول عمري غريق في بحر الإشارات.

ولكني لم أكن أعرف ماذا ينتظرني.

تيقظت في الصبح البدري، نافذتي مفتوحة على سماء صافية شفافة الزرقة تقريباً، تلوح لي من وراء الشجر الـذي عريت فروعه من الورق، وبدت نحيلة ولا مناعة لهـا إزاء هذا النقاء المستحيل.

لكن شجرة البنسيانا الوحيدة باذخة الورق كانت مشتعلة بزهورها الحمراء متفجرة بنارها النباتيـة البهيجـة سـعيدة بمجرد وجودها وازدهارها.

لم أكن عادة أوافق بسهولة على الذهاب إلى أحد هـذه البيوت "السرية"، كان لي بإزائها ألف هاجس وهاجس أحسب لها حسـاباً: الأمـراض المشـينة المستعصـية، البلطجـة، احتمالات السرقة أو الضرب أو البهدلة، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فالرثاثة المنفرة والفقر الذي يحبط الحس ويقتل الشهوة، وكلّ هذه الأمور التي لا تحتاج أن أقولها.

ولكني هذه المرة قلـت أذهـب وأحتـاط وأجـرب، أو أذهب وأغامر، يا ا بقى، إلام أظل أتـوجس وأتحـوط، يا شيخ دع الأمور تجري على هواها.

ثم إن هذه امرأة خاصة، ليست من النوع المألوف في مثل هذا الجنس. هي في النهاية، قلت لنفسي، ليست فيما يبدو بضاعة يا أخي، بل امرأة، أقول لك، وامرأة خاصة جداً.

كان الغروب ذهبياً محمراً ونحن على الكورنيش، ولما وصلنا إلى السلسلة ودخلنا إلى اللسان الذي يشق البحر، كان المدفع الضخم وراءه مصوباً نحو الأفق، قالت لي:

- حارجع من هنا، أخرم من الشلالات. العواف بقى ياخويا، فتك بعافية. أشوفك بكرة؟

كان في سؤالها قلق الرغبة الذي يتجاوز مجرد إنهاء صفقة، ونوع من طلب النجدة الصموت.

عندما مضت، كانت السماء صخرية، لا تناقش.

ندمت قليلاً لأنني لم أعرض عليها أجرة التاكسي، قلت، متأخراً مشوارها طويل. صحيح لم يكن في جيبي إلا حتة واحدة بعشرة صاغ، ونصف فرنك، وشوية ملاليم، لكن كان يمكن تدبير الحكاية. خلاص، قلت، كالعادة، فات الأوان.

أما في هذا الصباح فقد كان قلبي يطفو تقريباً فوق الماء الملح المتموج من الشوق، والرقة، والحبوط النهائي.

لأن عينيها كان فيهما هذا النور الذهبي الباهت عند الغروب، وكانتا مرفوعتين إلي بسؤال لا أعرف إجابته. ولن أعرف أبداً، قلت.

مازلت لا أستطيع أن أتحمل عبء الأحلام، ولا ثقل الأسئلة.

أنوء بها.

ماذا يفعل الناس، قلت، ينسـونها؟ يطيقـون حملهـا والنهوض بها وهم يمضون في طرق حيـاتهم، كـل يـوم؟ وسكك الأحلام، هل يجرءون على طرقها؟

أم ينكصون؟

أم ينفضونها عن أكتافهم، يعني، وبذلك لا بـد ترتفـع وطأتها وتنزاح.

هل ينطلقون بالفعل خفافاً؟

أم أجد في سيرتهم تلك الخطوة البطيئة، فيها ندم؟ ملل؟

أتخيل عالماً كله لحظات حادة ولامعة.

كحد سكين.

قاطعة.

ليس فيه لحظات مترهلة مجوفة سميكة الجلد.

ليس فيه عجين حامض خمران.

أريده.

عالماً لا يطاق.

نزلت من بيتنا في شارع ابن زهر، وركبت التـرام، لغاية محطة الرمل. كانت البلد يقظة نشطة وهـواء المينـا الشرقية، في أوائل مارس، مبلولاً.

وكان وشيش ماكنات القهوة الإكسبريسو والكابوتشينو وشهقاتها المفاجئة بالبخار المندفع ورائحة البن البرازيلي الأصلي النفاذة تملأ المكان بدفء حميم. شوالات البن مرصوصة على الأرض الرخام مسنودة إلى الحائط اللامع من النظافة، وعليه الماركة المدورة المميزة الطاحونة الضخمة، رابضة وراء سور قصير من قضبان حديدية، تهتز بذبذبات متلاحقة، وتفوح منها رائحة البن المطحون، طازة، عبقة بالحوشية.

وأنا أشرب باستمتاع خالص من الفنجان الأبيض المستدير، أستطعم أيضاً سماكة جدران الفنجان الصيني المدورة، ومفاجأة الشفطة الأولى من الكابتشينو السخن رغم أن متعتها متوقعة ومكررة.

وعندما خرجت سمعت ضربات الماء بسور الكورنيش، وطالني بعض رذاذه، على الصبح، وبلّ جاكتتي الزرقاء الطويلة التي لم يكن عندي غيرها. كانت الجاكتة تنزل إلى ما فوق الركبتين بمسافة قليلة، وكان فيها، مازالت، أناقة أيام عز غابر قبل أن تأتي من أمريكا في بالات المعونة

وتشتريها لي أمي باثنين جنيـه. وكانـت مدفئـة، بطانتهـا حريرية، ورافقتني سنين طويلة.

وصلت المنشية، منتشياً بالبلل في هواء البحر وإيقـاع وشيشه المطرد وخبطاته على كتل الأسمنت اللزجة بالطحاب الأخضر، وحودت من عنـد ضـريح الخـديوي إسـماعيل الرخامي ذي الأعمدة البيضاء الرشيقة، ومن عند تمثال جده الذي كنت أظنه يحمل سيفاً برونزياً علـى جنـب حصـانه الصافن الصاهل دون صوت، وعبرت وسط الزحمـة مـن سوق الخيط وسوق المغاربـة وسـوق العقـادين وسـوق الصيارفة وزنقة الستات وسوق الخراطين وشـارع فرنسـا وعبرت بذهني خاطفة صورة أوديت التـي تنتظـر منـي أن أتقدم لها رسمياً، ولم أفعل قط، ولقيتها مرة فـي سـوق الطويلة وأدانتني إلى الأبد نظرتها الجريحة القاتلة، ونفيتهـا ثلاثاً، وكنت قوي العزم على أن أذهب مشياً حتـى البـاب الأخضر.

كنت قد دخلت "بودرو" علـى قمـة شـارعي فـؤاد وشريف، قلت أتشبرق بحتتين جاتو وفنجـان شـاي علـى

العصر. فيم كان الاحتفاء النادر بنفسي؟ ا أعلم، هو أنا عقلي دفتر، نسيت.

كان "بودرو" فسيحاً ومريح الهواء، نظيف الأرضية يلمع رخامها لمعة أنثوية تقريباً، والفترينات الداخلية تضيء من وراء زجاجها البلوري السميك بقطع الجاتو لدنة ومتماسكة القوام: الشيكولاته بوجوهها البنية المحببة حبيبات مدورة دقيقة في غاية الصغر محددة ومتلاصقة، والكريم شانتييه الفضي اللألاء المتجمد برشاقته في سيولته المخادعة المغوية، والميل فيي بطبقاته الرقيقة المسواة بعناية الحب والميرانج الهش المكور أكاد أحس رقته تنكسر في فمي لتغمرني زبدة اللذة المتسايلة.

رأيتها تدخل، مترددة قليلاً، تنظر بقلق إلى الرواد القلائل في أول بعد الظهر وإن كان واضحاً أنها تعرف هذا الموقع جيداً من مواقع جولة صيدها.

كان حذاؤها الأبيض بكعبه العالي المصمت قطعة واحدة من المقدمة حتى الكعب، كان اسمه "كعب دبابة"، يرن على رخام "بودرو" له صدى.

ابتسمت لها.

ألم أقل إنني، على غير العادة، كنت أحتفي بنفسي؟

فأقدمت علي دون تردد، وجلست على المقعد الصغير الأنيق المصنوع من الخشب الموجني المشغول والمصـقول، ذي المسندين المحسوبين برهافة، وقالت، بصوت خافت على نقيض ما يتوقع المرء من مهنتها: سعيدة.

رأيت "الأهرام" في يدها. كان مسك الجرنال علامـة شياكة، درجـة فـوق مـن درجـات السـلم الاجتمـاعي، وكان المانشيت ببنط المطبعة الثالث – لم تكـن أكليشـيهات الخط قد عرفت بعد – "سقوط طبرق بعد مقاومة باسلة".

كانت الجاكتة الصيفي البيج – قلت خفيفة عليهـا فـي أوائل مارس هذه – لها كتفان محشوتان عريضـتان تعطـي جسمها الصغير قوة واتساعاً وتكسب وجهها المسمسم رهافة إضافية، وخيل إلي أنني لمحت في صدر البلـوزة السـمني، تحت الجاكتة، آثاراً مخفاة بحرص لخياطة ترتق تمزقاً قديماً في القماش الحريري، تحت الصدر مباشرة.

عندما جلست ارتفعت الجيبة الصوف البني الداكنة إلى ما فوق ركبتيها السمراوين، بكثير، قلت في نفسـي الجيبـة شتوية وثقيلة، قصيرة، على موضـة السـنة التـي فاتـت،

ليس عندها غيرها ربما، ورأيت بنهم لا أكاد أداريه أن ساقيها اللتين تعرتا حتى منتصف الفخذين تقريباً، ناعمتان وراسختان، متينتان، على عكس ما كانت توحي به خطواتها غير الواثقة.

سوف أقول: ألم يندثر ذلك كله؟ بودرو؟ الشرموطة نصف الأنيقة التي تقيم في سكة الجمرك؟ وهذا الذي يحكي الحكاية كلها، أليس هو أيضاً مدثراً؟ ماذا يريد أن يثبت، يعني؟ كل ذلك راح، وكل حكايات الدنيا لا تعيده، ولا صلة لها به. يعني.

جسده مظلم.

دقات طبل بإيقاع إسكندراني تتقاطر، تتلاحق، تدوي بقوة ورقة معاً، في صمت محبوس الأنفاس، في عتمة مخايلة ليست مؤكدة.

الجعارين مقوسة الظهر مدرعة ضد الزمن تنحت طريقها إلى خارج التربة الغمقة، بحثاً عن نور غير مؤكد.

لم تكن شرموطة الجمرك هي التي ستقول لي ذات صباح، بالإنجليزية:

- أنت صنعت يومي!

لأنني، فقط، أحببتها، وقلت لها حبي.

أما هي فسوف تقطع الحياة – كما تفعل في كل شـيء – إلى شرائح منفصلة، إلى قطع متباينة لا صلة للواحدة منها بالأخرى، تأتي الواحدة منها بعد الأخرى. كل يوم لوحـده. كل يوم مفارق ومغاير، وكل مزقة من اليوم، وحدها.

أيام وليال ممزقة يهف عليها هواء الذكريات الضعيف.

أما أنا، في طفولتي وشبابي، وأظن ذلك مازال سـارياً في دمي وفي أركان من روحي – هل هو بـاقٍ فـي أرض الوطن كذلك؟ - فعندي الحياة منسابة علـى سـاحتها، دون حدود، دون تجزيء. ماذا يهم اليوم بالذات؟ أو أي ميقـات؟ ألم يكن هناك الأمس – ألم يزل هناك الأمس؟ - متصلاً به، جارياً إليه، منصباً فيه، نابعاً عنه، وأمس الآخر، وأمسـيات وأصـــباح وليـــالٍ منقضـــية قائمـــة قادمـــة معـــاً، أليست كلها إما غير موجودة أصلاً وإما متداخلة متداغمـة؟ سعادة الأمس باقية لم تنقطع على نحو ما، ولا شحب وجهها حتى.. وآلام الشباب – والعمر – تتقلب بالمضـض الـذي لا ينتهي، لم تمح بعد، لا يمكن أن تزول ، ما حدث في الغد، ما سوف يحدث البارحة، مالا يحدث الآن، ماثلة معي، معاً،

أبداً. لم تقف لأنها لم تجرِ قط، لأنها لا تجري. فلماذا تحيتها لي لأنني صنعت يومها، اليوم؟

سوف يكون ذلك آلياً جداً.

ذلك يوم من أوائل مارس في الأربعينات، في البـاب الأخضر.

نحن أبديون، سرمديون،أهرامنا قائمـة فـي سـاحات داخلية، وليست في نهاية شارع بذيء. اليوم – الليل عندي لا يمضي، ثقل من البركة أو من الخـواء، لـيس للـدهر أول ولا آخر.

الباب مفتوح دائم الخضرة أو قاحل جاف، فـي كـل الدهور.

كانت مخازن القطن على جانبي الشارع تعمل بنشاط، بنوع من الاستبسال اليومي غير المـدرك لشـجاعة يأسـه، النوافذ التي تشغل واجهة حائط المخزن كلها، فاغرة، ارتفعت مصـاريعها الحديديـة المصـبوغة بـالأحمر الكـابي، عن فراغ متلهف بعيد الغور. الأوناش الضخمة تئز سلاسلها المتينة خطرة الشكل ترفع بالات القطـن الهائلـة المحزمـة بسيور مسطحة لامعة بين الزرقة والسـواد مغـروزة فـي

جنُوب البالات تمسكها بدقة وإحكام. الأسطى الونشمان يشور بيديه وذراعيه بحركات متفق عليها: بيرة..! فيدور الـونش دورة كاملة.. نص عندك.! تهتز البالة فـي نصـف دورة.. ستوب.

البالات مشبوكة بخطاطيف ماكرة لا تثقبها، تصعد من على ظهور الشاحنات التي يبدو شكلها عتيقاً، مربعة الخطم، مفتوحة تنفث بخاراً عن أفواه محركاتها العريضـة، لكنهـا شغالة فعالة حمالة الأسية.

وعربات الكارو الطويلة التي تجرها أحصـنة فارهـة متينة الكفل تزاحمها، تقرقع إذ تتلاحق دقدقاتها وهي تـدور بعجلاتها المكسية بالحديد على بازلت الشارع المضلع.

قلت: ها هي شونة الخشب. نمرة ١١ خلاص وصلت.

كانت الشونة مفتوحة واسعة، لهـا سـقف جمـالون بالقرميد الأحمر القديم يصل إلى نصـف الشـونة ويتـرك النصف الثاني مكشوفاً تحت السماء. والبغال مربوطة جنـب الحائط. مدموكة ثقيلة، تدس خطومها عميقاً فـي المخايـل، تزفر فيتطاير حول أسنانها الضخمة المكشوفة رشـاش مـن هشيش التبن بلا وزن، خفيف، خالص.

كان السلم كما كنت أنتظر تماماً، مظلماً لا أكـاد أرى فيه شيئاً، تلمست طريقي عليه بقـدمي ويـدي المتمسـكتين بالدرابزين الذي لم أكن أعرف حتى، مدى نظافته. حدسـت من لزوجته المتماسكة القديمة أنه متراكم القذر، لكن قذارتـه جافة، تاريخية.

ذكرت نفسي: الكات الثالث، يعني رابع فسحة، وعندما وصلت كانت لمبة نمرة خمسة، مدغمسة، صفراء النور فـي شعلة السلك الكهربي المتعرج وراء الزجاج غير النظيـف، تتقد بضعف على الباب.

قلت لنفسي: كأنني في فيلم عربي قديم. لكن الديكور، هنا، حقيقي غير مصنوع.

ياما يحاصر الواقع الرث الخيال المتنزي، قلت.

قلت: يا سيدي على الحكم!

هل هناك واقع خارج الخيال؟ قلت.

عندما فتحت لي الباب ، تدفق النور من نافذة مواجهة تفيض وتنسكب بأصص الزرع ونباتات الظل.

ولما انجابت بهرة النور المفاجيء رأيت أنهـا تلـبس قميص نوم بيتي، طويل الذراعين، ساتان أزرق لامع، ولكن

طيات البطن وأعلى الساقين، من اللبس المستمر، تركت خطوطاً باهتة بان منها نسيج القماش التحتاني نفسه تحت لمعة الساتان. وفتحة العنق مرتفعة، محتشمة. ولكن القميص الطويل مشقوق من الجانب حتى منتصف الفخذ، ليتيح لها حرية الحركة، والمشي. وكانت تلف رأسها – كالمنتظر بالضبط – بمدورة من قماش خفيف مزرق، غير لامع، اكتسب من طول مسكته بشعرها طياته ولفاته نفسها، كأنما سرت في نسيجه حياة خاصة، وحرارة خاصة، من الشعر الخشن القوي.

كما سوف تلبسه امرأتي الأخرى في زمني الآخر.

في الفسحة الطويلة البلاط المغطاة بكليم أسيوطي، رأيت طفلها، قالت: اسمه مرسي، اسم ا عليك، شي يا سيدي المرسي أبو العباس. كان الولد عمره سنتان ربما، أو أكثر قليلاً، يمكن. وكانت عليه فانلة واحدة، ع اللحم، جسمه مدملك أسطواني الشكل وبطنه بارز، جالساً على قصرية صاج، عاري المؤخرة، سعيداً بما ينجز، في وسط "الصالون".

وقدمت لي كوب كركديه، سخناً، فيه حرافة مثيرة.

كأنني في زيارة عائلية، لبيت الجيران مثلاً.

لاحظت، لأول مرة، أنها لـم تكـن قصـيرة جـداً، ولا طويلة جداً. سوف أعرف حنكتها بفنون صـنع العشـق الجسماني الخالص، واستشارتها لكوامن جسمي وخفاياه التي لم أكن أعرف مدى لطفها ودقتها، على أنني عرفـت معهـا – في تقلب غمرات الاستكشاف والمغامرة – كيف أسـتنفر مناعمها هي، بعد أن أبلاها ربما، أو على الأقل ثلمها، طول ممارسة الصنعة الروتينية.

وحكت لي، فيما بعد، عن قصة جارتها التـي تحـت، ضمن حكاياتها الكثيرة، فقد كانت إرهاصاً مبكراً بشـهرزاد الأخرى، قالت:

- سكينة كل الناس تقول لها سوسـو مليئـة جـداً، سمراء جداً. زوجها سائق تاكسي معتبر، من أولاد الحتـة، عندنا من كوم الناضورة.

طلعت لي فوق هنا، يجي من شهرين ثلاثة، في نص الليل، تبكي بالدموع السخنة. قل الحمد   ما كانش عنـدي رجاله يعني. قال يادار ما دخلك شر، مالك يا عينـي مالـك

يا سوسو يا ضناي؟ قالت حودة ضربني علقة سخنة، حودة زوجها، اسم ا على مقامك، طيب ليه.

قالت لي:

جايب لي ياختي قال إيه بدلة رقص، بالترتر، شفتشي محزقة ياختي كانت حتتفزر مني، وقال إيه قال ارقصي. ارقصي يا ولية، ارقصي لي بيها.. ا يرضيك، ا يهديك يا خويا، طب تيجي إزاي؟ قال على عينك يا تاجر، آدي ا وآدي حكمته، تدخل في إزاي دي؟ قال لازماً ولابد ترقصي لي. بايني كان شارب له كاسين طافياً ولا هباب وا مانا عارفه قلت ما ينفعش يا حودة، ما يجيش يا حودة، مانت شايف أهه هونا حقول لا ليه بس؟ مش نافع يا حبيبي. هي كلمة ما تنيتهاش، وفين يوجعك، ما خلاش. راح نازل في تسفيخ، بالقلام، بالشلاليت، باللكميات، تقوليش ياختي راكبه ستين عفريت، لما طفحني الكوتة بعيد عنك. وعن السامعين.

قالت له إن سوسو بعد ما نزلت من عندها على وش الفجر، راحت للبوليس، وكتبت المحضر والذي منه، وحولوا زوجها للنيابة، والنيابة حولته للمحكمة.

قالت: وعنها ياسيدي. القاضي قال: "براءة".

طيب ليه؟ قال لأنه ما تعقلش، كده بالعقل مش ممكـن فيه راجل يقول لست زي دي – اسـم ا علـى مقامـك – ترقص له، وإيه في بدلة رقص كده. يبقى ما حصلش. يبقى بتتبلّى عليه. القاضي قال لها يا ست مش ممكـن. اتهامـك كاذب. هو ده برضه جسم يترقص بيه! أي وحياة النبي قال! يا خويا.. يا ما في الحبس مظاليم!

وعنها يا سيدي واتصالحوا، سوسو وحـودة،في قلـب المحكمة، قدام القاضي قال لهم صافي يا لبن؟ قالت والنبـي على قلبي زي العسل!

كأنها لم تغرق تماماً في لحم جسمها. ذهبت إليه طافية على غمر هذا الجسد.

فكأن جسمها سوف تترقرق على سطحه مياه بحر غير مرئية.

سكبت نفسي على جوارحها الناعمة.

سوف أقول : عينان كأنهما زهرتان منورتان صافيتان على ماء اللوتس الذهبي.

عبق ماء البحر الملح، نفث سمك ذفره يتضوع.

الصدفة التي رأيتها، ذات حلم، وردية اللحم، داكنـة، حجرية اللزوجة، متماسكة وطرية، علـى شـاطئ جسـمي الرملي.

الخضرة اليانعة الظليلة يتفتق لها ألف باب على حرف اليم.

النباتات والزروع حية وارفة تشاركنا فعـل العشـق الحميم.

زروع "السينجونيام" عريضة عالية تظللنـا، أوراقهـا عريضة وسميكة اللحم، غامقة من الخارج، وأما في باطنهـا فهي مشجرة متشرجة متدرجة التلوين بالأخضر الفاتح متعدد القيم، عودها منصوب مستنفر منتفخ بعصارته منبثـق مـن التربة المحصورة، ولن أفرغ من تقليب وجهي على ثـدييها المليئتين شفتاي تتمرغان في الخصـوبة الطريـة الداعيـة الترعة مطواعة ومقاومة معاً، سوف تقول بخفـوت، ولـذة، بعتاب خفيف كأنه استزادة، بأنين كأنه من المتعة: صـدري! اشتعل صدري! اشتعل صدري بالنار من وجهك، صـدري اتهرى من ذقنك يا حبيبي، وأما زرعة القشطة الهندي فقـد امتدت أصابعها الخضراء المشرشرة، حتى في غمار النشوة

عددتها فوجدتها تسعة، كفوف عريضة لها شـرايين داكنـة الاخضرار تسري فيها وتتشعب، استقرت الأيدي الخضـراء رقيقة الحواف مهتزة الأصابع على بطنها الخمـران وهـي تضغط رأسه بيدها على القبة اللينة، برفـق، تريـد لـه أن يغوص مع امتدادات النبات الذي جرت فيـه الآن رجفـات مستقلة، فيغوص. وأطراف الاسبيديسرا شبه الحديد النبـاتي المصبوب صباً بين الجسمين المتلاصقين، نازلة، متكاثفـة، مستدقة الحفافي صلبة الشكل لكنها هفهافة، شـديدة الدكنـة، متراكبة الورق.

أسمع هدير المدفع الضخم على السلسلة، في الشاطبي، مرة واحدة، فيدوي الأفق بصدى مليء مكتوم علـى حافـة الشفق المصمت.

القمر ساطع على موج متراوح متناوب الزبد، وشـبح السفينة بعيد، يسري بلا صوت، كأنما من غير محرك، مـن غير بحارة، من غير بوصلة ولا دفة، لكنه كأنمـا يعـرف طريقه.

روح مسكوبة، نازفة، مفتوحة بلا أسوار.

غرابة التماس اللصيق الذي لا ينبع عن دخيلـة هـذه الروح.

عين الجسد المظلم تطل على أفق خاص بها، وحدها.

لا أعرف هذا المس الحميم، هذا المسيس، هذه اللوثـة إلا بانصباب نبع حنان مكتوم لا اسم له، وإن كـان نـزراً، وربما لا ضرورة له. لكن الجسد من غيره لن تقوم له قائمة. حنو غير محدد بل شائع كماء رقراق منساب على الأرض.

سوف تقول له: لا يمكن أن أصنع الحب دون قدر من التفاهم والعطف الإنساني.

"العطف الإنساني!" هكذا سوف تقول.

قال لنفسه: أي قدر يكفي. أي قدر يمكن أن يصنع، أو يوجد الحب، بلا تعب، هكذا عفو اللحظـة. ألـيس كـذلك؟ أين تعب المحبة؟

الجسر على موج الماء العميق، يـذهب إلـى وسـط المجرى العريض، وينقطع.

النزوة العاشرة

قصة عودة

كان المركب يتمايل بي في خضـم بيـوت الجمـرك والورديان.

البيوت التي تحملها أمواج السنين، وقد تساقطت بعض أحجارها، نوافذها باهتة الخشب، مخلوعة، مسنودة بالكاد إلى الحيطان القديمة بفجواتها الفاغرة المسدودة بقطع من الكرتون وخشب الأبلكاش، عليه آثار مياه.

ومعي صاحبي الموهوم الذي نلجأ إليه – نحن جـنس القصاصين والرواة – عندما تعوزنا الحيل إلى إيجاده. ومن ثم يوجد، حقاً وفعلاً.

قال لي: لن تستطيع أن تحكي "قصة عودة".

قلت، ببساطة: لماذا؟

قال: الطابوهات كثيرة، ومن أولها هذا الطابو تريد أن تروي قصة هذه البنت؟ ألم يكفك ما يشاع عنك؟

قلت: وهل يمكن أن أنسلخ عن جلدي، أو أنزع عني حشاي؟ ثم إنني لم أقل ذلك قط. لم أقله. ببساطة إشاعات المقاهي كذب، وهم يعرفون. أأنا قلت: أنا منفي فيها؟ أنا الصب الموله بها الذي كم قلت – على الملأ – إنني معجون لحمي بلحمها ودمها؟ أفي هذا يمكن أن توجد مماحكة؟ أو أقاويل؟

هناك عندي هذه الصخور الراسخة في الغمر، وهناك ماء ممتد شاسع أمامي، أمشي عليه، باليقين.

ثم إنني يا أخي أتحدى أي أحد أن يقول أين، ومتى؟ قلت هذا الذي يشاع؟

وهأنذا أقول، "إنني أنتمي إلى هذا كله!" وعلى الفور يصبح هذا كلّه أنا.

قلت: يمكن سميي، أو خيالي الساري الحي، في لحظة شطط أو غضب، قال ما يشبه هذا. لكنني – قطعاً – لست هو وشطحاتي ضاربة في اختراقات أخرى.

لا. لست هو، مهما كانت قرباه مني.

قال صاحبي: ما أبعدك عني! وما أقربه منك، في آن.

قلت: لم أقل قط.

قال: أنت؟ أنت تقول أو لا تقول؟ يا أخي مـن أنـت؟ بمجرد أن تدخل أنت في حكاية – سواء كنت أنا الذي أرويها أم أنت، سواء – لا تعود أنت أنت. تصبح آخر. ولا علاقـة لك عندئذ بمن تسميه "أنت" أو على الأقل علاقتك به متقطعة الوشـائج ورثـة الأوصـال. وجـودك نفسـك – أياً كان – يصبح عندئذ معلقاً، يصـبح موضـع سـؤال. بل أكثر. يصبح مجالاً للافتراع والخلـق الجديـد، للإيجـاد وليس الافتراء أو الاختلاق، بطبيعة الحال.

قلت : الأكاذيب في هذا العالم صـفيقة الوجـه جـداً. لا تموت بسهولة.

قال صاحبي: ما هكذا عهدتك. أتدافع الآن عن نفسك؟ وتبرر؟ وتفسر؟ يا أخي قل يلعن أباهم، ببساطة، وإخلص!

قلت: لا. لا أقولها أبداً، دعك من هذا. أنت تضـربني في صميم وجودي. ألا تكفي إشاعة الأقاويل؟

قال: نعم. سواء كنت أنا صاحبك الموهوم الذي صنعته صنعاً، أم لم أكن، سواء كنت أنا الذي صنعت نفسي أو لـم أكن، فبمجرد أن ابتعثت فإنني، أنا أيضاً، أصنعك من جديد.

أو على الأقل – لا يأخذك الغضب يا سيدي – أشـارك فـي صنعك.

قلت: ها نحن متواطئان في النهاية، وأنت الذي تقـرأ حديثنا الآن، أنت الآخر المتعـدد الملتـبس الوجـه الـذي لا أعرف من هو، متواطئ مع كلينا. متـورط معـي ومـع صاحبي الموهوم، شئت أم لم تشأ، لأنك بدأت تـدخل لعبـة المتاهة هذه التي لا أول لها ولا آخر.

قال صاحبي: ما علينا. هل تستطيع أن تحكـي قصـة هذه البنت، الإسكندرانية، بنت البلد، أياً كان اسمها، وأياً كان منبعها ومصبها. هي من هذه الأرض. إليها تعود. من بـين ناس هذه الأرض. هي بشخصها ومقوماتها المحددة ليسـت تجريداً ولا تعميماً ولا شفرة ولا رمزاً. لاشيء هـي فقـط البنت التي قلت إنك عرفتها – هل أحببتهـا أيضـاً؟ - هـل تستطيع أن تحكي؟

عرفت هيلين موسى، ولعلني أحببتها، وكانت طفلـة، عندما كنا نزور خالي فهيم في شارع جانبي، غير مرصوف تحفه الأشجار العتيقة الضخمة من الجـانبين، متفـرع مـن شارع الجمرك.

وكانت سرايتهم على قمة هذا الشارع، عند التقـاطع، تجاور الحيط في الحيط بيت خالي ،الذي لم يكن خالي علـى الحقيقة بل قريب أمي قرابة تعود إلى عائلة جدتي في شـبين الكوم ولم أستطع حتى الآن أن أتبين هذه القرابة على وجـه الدقة، وكنا نزور خالي فهيم في عيد الملاك ميخائيل؛ لنهديه "أقراص الملاك" التي تعملها لي أمي وتدهنها بزيت السـيرج وتضغط على العجينة بالخشبة التي فيها رسم صليب وكتابـة بالحروف القبطية، وعندما تخرج من الفرن، هشة، مقرمشة، فواحة، محفورة بالرسم والحروف الغائرة في لحمها، عندئـذ أعرف حقاً العيد، عيدي الخاص، ولست أنا مع ذلك ميخائيل لا على وجه الدقة ولا – حتى – على وجه التقريب.

كانت سراي آل موسى تقوم، بمهابـة ومناعـة، وراء سور حديدي عالٍ مشغول تنتهي عيدانه الرفيعـة المـدورة بسهام مدببة مذهبة، ويحفها النخيل السلطاني الشامخ.

كنت أراها عندما نذهب لخالي فهيم بعـد الظهريـات تلعب بكرة كبيرة وتنط بمرح، ضفيرتاها الطويلتان تتماوجان على ظهر فستانها القصير الذي يكشف عن ساقيها الرفيعتين السمراوين، تحت نظرات – ورقابة – مربيتها التي تصورتها

نمسوية مثلاً، في اليونيفورم الأزرق الفاتح والكاب الصغير على شعرها المعقوص وراء مؤخرة رأسها على شكل كعكة. فهل هذه صورة من الذاكرة المراوغة؟ أم صورة من فيلم من نوع "صوت الموسيقى"؟ هل أكرر الأكليشيهات المصنوعة التي تطبعها على أرواحنا شركات هوليوود المتسللة؟ أم أنني أحتفظ بقسمات حية تومض في ليل الصبا البائد الذي لم ينقض قط؟

حكت لي – عند عودتها – بعد ذلك بسنوات – أن أباها كان على علاقة وثيقة بالرسامين الإسكندرانية، على أيامه: أنجلو بولو، كلياً باداروا، أرستيد بابا جورج، محمود سعيد، هاجوب هاجوبيان، أنريكو براندينى، وسيف وأدهم وانلي، كما كان وثيق الصلة بالسيرياليين والتروتسكيين القاهريين: جورج حنين، رمسيس يونان، فؤاد كامل، أبو خليل لطفي، إيزاك ليفي، وجو شازنجر، إيريك دي نيمش. كرت الأسماء ع السبحة، تحفظها عن ظهر قلب، كما تحفظ التمائم والعزائم والرقى. قالت لي إن ثروتهم التي صنعها أبوه وجده من تصدير القطن كانت قد راحت في البورصة، لكن بقيت السراي التي بنيت من أوائل

القرن، جنب الشغل القديم الذي لم تعد لهم به صلة، وأنه كان يشتغل عندئذ في "البشير" اليومية والبورص أجيبسـيين فـي الوقت نفسه، يكدح في الترجمة للعربيـة ومنهـا تلغرافـات هافـاس ورويتـر ومقـالات الطـان وبوبولـو ديتاليـا، وإيكو دي سوار، والتعليق عليها، وكان يحرر صفحة ثقافيـة أدبية أسبوعية ينشر فيها قصائد للنشار ومقـالات لأنطـوان داغر وفي وزارة صدقي الأخيرة صودرت "البشـير" عـدة مرات، مع "الجماهير" و"صوت الأمة".

لكني لم أعرفه على وجه التحديد مـن بـين جمـوع المعتقلين معي في ١٥ مايو في أبو قير، لا شك أنني رأيتـه لم أعرفه وسط جماعات الماركسيين من كل جنس ولون من الأرمن والجريج إلى المصريين الأقحاح، وكشافة المابـاي، وشباب صهيون واليوغوسلاف الهاربين مـن حكـم تيتـو، والروس البيض. قالت لي إنه أفرج عنه بعد شهور قلائل بعد أن رفض السفر والترحيل إلى الخارج من المعتقل مباشـرة، ثم اعتقله عبد الناصر مرة أخرى في ١٩٥٦ ومرة أخـرى رفض أن يوقع على كـل أنـواع الالتماسـات والتنـازلات والتعهدات، حتى رحل بالقوة الجبرية ونقل من المعتقل إلـى

الباخرة "الجزائر" التي حطته في مرسيليا حيث منحه الفرنسيون اللجوء السياسي، ثم الجنسية الفرنسية.

قالت هيلين إنه عندما نزل إلى رصيف مارسيليا قال لها إنه لم يره من وراء سحابة الدموع التي لم يملك أن يحبسها، وأنه بكى مرة أخرى عندما تلقى جواز سفره الفرنسي، قال لها إنه عندئذ فقط عرف المنفى والانتزاع عنوة من أرض الوطن.

هل هذا مشهد مؤثّر متوقع ومنتظر في هذا السياق – إن كان "مؤثراً" من الأصل؟- أم أنه قد حدث بالفعل؟

قلت: ما دمت أحكيه فقد حدث، بالفعل.

قالت لي إن أمها – وهي كاثوليكية مصرية شامية من عائلة مجدلاني العريقة أخذتها وأختها الكبرى وسافرت إلى فرنسا، وأنها كانت تسافر وتجيء إلى مصر بدون مشاكل. قالت لي هيلين إنها أوشكت أن تنسى العربي، وأوشكت أن تنمو، وتتكون، فرنسية المزاج والثقافة واللغة.

أوشكت، فقط:

ظللت – قالت – مصرية، بنت بلد، في عمق مني، حتى النخاع.

عندما رأيتها – بعد كل تلك الحكاية يمكن بعشرين سنة – كانت ما تزال بنت بلد حقيقية فعلاً. سمرتها الداكنـة وشعرها الأسود الحالك ووجهها المسمسم وعيناها العميقتـان تعطيني حساً مصرياً خاصاً لا يتأتى عن هذه القسمات وحدها بل عن شيء آخر، روح أخرى، وراءها.

وكانت تتوجس قليلاً من الكلام؛ لأنها كانـت شـديدة الوعي بلكنتها الفرنسية. كانت قد تعلمت العربية الفصـحى، من جديد، في فرنسا وفي دمشق، وجازت امتحانات الليسانس فيها، ولكنها كانت أحياناً تبحث عن الكلمـة التـي تريـدها – وتعرفها – بالعامية المصـرية، فتجـدها، بعـد لحظـة، أو تضيع منها.

وكان ثدياها الصغيران، ينسكبان، بحرية، من ثوبهـا الواسع الفضفاض، عندما تنحني ثم تعتدل على الفور كأنهـا أحست أن هذا لا يصح أن يحدث، هنـا. وعنـدما تنحسـر ملابسها عن ساقين طويلتين – مازالتـا رفيعتـين ولكنهمـا امتلأتا الآن بشباب الأنوثة غير المتورع وغير المكبـوت – كانت تسارع بتغطيتهما، بحركة مألوفة عند معظـم البنـات المصريات.

وكانت تعرف من الشعر الجـاهلي، وشـعر صـدر الإسلام مالا يعرفه – في الغالب – معظم أهل الاختصاص.

قالت لي: لم أترك قط هذه الأرض، ولا لحظة واحدة. بعد أن أرغمت على مغادرتها، هأنذا قد اخترتهـا، بمحـض إرادتي، وجئت إليها. كما لا يتـاح لأهلهـا – ربمـا – أن يختاروها وأن يسعوا إليها. لأنكـم تقبلونهـا، مسـلماً بهـا، أو حتى مفروضة بطبيعة الحال.

قال: في عودتها مجابهة. بل مصادمة. هي فـي الآن نفسه ارتطام العشق وتلاطمه.

قال لها: اسمعي يا هيلين، أعرف أنك غير متدينة، جداً على الأقل.

قاطعته: غير متدينة، فقط؟ الدين يا حبيبي لا علاقة له بهذا كله. ليست لي ثم عقيدة دينية مغلقة، محكمة، حاكمـة. عقائدي – إن كان ثمت – ربما تقـوم فـي مجـال آخـر. وهي دائماً موضع سؤال على كل حال.

قال: نعم يا هيلـين، أعـرف. أعـرف هـذا تمامـاً يا حبيبتي.

فأدركت وهي تنظر إليه متفكرة، تتأمله بتمعن: أنـت أيضاً. أنت شديد الحس بأسئلة الدين وهمومه. أظن أنك غير مؤمن، على طريقتك.

قال: نكراني إيمان.

يبدو جيدها المستوي الناعم، بلاط حمام داكن السمرة، من فتحة العنق الواسعة في فستانها الكـاكي، علـى آخـر موضة، وفي حماستها في الكلام تنزلق الفتحة قليلاً عن كتفها الملساء ويبدو شريط السوتيان باللون الكاكي اللميع، لدونـة الكتف الملفوفة الصلبة معاً تبدو له نباتاً استوائياً غضاً ينمـو على عظام هيكل متماسك مغاف ومدفون في طوايا جسدانية نضرة وقوية.

أكمل ما كان بسبيله أن يقول في البداية: ولكنكم كلكم، في نهاية التحليل، منحازون إلى جانب هذه التـي تسـمونها "الأرض الموعودة" وخاصة في الملمات والأزمات، وكأنمـا على الرغم منكم.

قالت، بغضب حقيقي: لا تضعني أبداً في مجمـوع، لا تجعل مني أبداً رقماً، ونكرة، ووحدة في تعميم. أنا هي أنـا، فقط. قالت: كاترين أختي ذهبت،وأقامت ثلاثـة أشـهر فـي

كيبوتز في النقب. كاترين قالت: "المستقبل هناك، والحرية، والإنجاز". كاترين قالت: "وفوق ذلك هناك الحصن، والملاذ الأخير من الاضطهاد".

قالت هيلين:

قلت لها: لأ.

قلت لها: "بل نحن الذين نجلب لأنفسنا الاضطهاد"..

قالت لي: "لا تكن يا حبيبي أنت أيضاً عنصرياً مضاداً. لكن تلك الأرض الموعودة غصب وعدوان، أياً كانت دعاوى الأعراق القبلية التوراتية أو التاريخية المدفوع بها إلى ساحة التعال والحجج. تلك "الأرض الموعودة" مسخ وتشويه وطغمة عسكر تحت أقنعة ديمقراطية تظل أقنعة، مهما كانت. لا علاقة لها حقاً بالناس.

ثم ألحقت وهي تضع رأسها على صدره: أنت تعرف معنى الاضطهاد.

قال: لا. لا أعرفه.

قالت وهو يربت على شعرها، بغياب: صحيح. أنت تحمل أرضك في دمك، أولاً، ثم أنت بعد ذلك اخترتها. أنا وافدة. جدودي جاءوا إلى هنا، من أسبانيا، من تركيا

العثمانية، لكني أنا اعتنقتها، طواعيـة، ألقيـت نفسـي فـي حضنها.

قال: في هذه القصة كلها رومانسية ضرورية، قاسية، صلبة.

قال لها: كنت أراك تلعبين بكرة كبيرة في حديقة بيتكم في الجمرك، مـن وراء السـور الحديـدي ذي الأطـراف المذهبة، و"ناني" ترقبك بصرامة. هل كانت نمسوية؟

قالت: لا أذكر. لا أذكر هذه الحكاية كلها إلا بغموض شديد.

كنت أعرف أن هذه السـراية، هـذه الحديقـة، هـذه المربية، أرض المنصورة التي كانت لأمها، ومحلج القطـن في العزبة الذي أممه عبد الناصر، محفورة كلها في روحها.

كان هناك عسكري الحـرس، يبـدو نحـيلاً وداكنـاً في اللبس العسكري الكاكي، بالشورت الـذي يصـل إلـى الركبتين، يقف بمدفعه الرشاش القصير على كل ركن مـن أركان السلك الشائك المزدوج الذي يحيط بنا. النور الكشاف القوي يطوف ببطء على السياج تـدور بقعتـه المسـتديرة الساطعة دورة متمهلة متربصة.

قال: أهذه – كتاك – صورة من أفـلام الأربعينيـات عن معتقلات النازي؟ أهذا مشهد من صنع هوليوود أيضـاً؟ هل تلعب بي الذاكرة لعبها المعتاد؟

قال: لا. هذا العسكري الأسـمر بالشـورت الكـاكي والبدلة المتهدلة نوعاً ما، ولفات الألشين الخشنة الرمادية تلف ساقية الرفيعتين ليس من الجـنس الآري، ولا هـو يابـاني تحركه وطنية أتوماتية مبرمجة عمياء – كأنه كائن آلي مـن كوكب آخر – بل هو من أبناء بلادنا. هـذه صـورة تظـل – وحدها – باقية. ليست كاملة السواد ولا أحاديـة النغمـة، ليست من أفلام هوليوود.

قال: كنت لا أحـب الخـروج بالليـل مـن العنبـر المرصوص على الجانبين بالسرر النقالي، مفـروش عليهـا مراتب قش، والبطاطين الميري، وأصوات أنفاس النـائمين المثقلة جسومهم وأرواحهم، الشخير المجهد وأنـين الحـبس الذي لا يسمح له بالخروج مـن بـاطن القلـب، ملفـوفين بـالملاءات البيضـاء – غيـر النظيفـة كـل النظافـة – أو الملونة، التي طلبوها من بيوتهم، وبجانبهم صناديق الشاي أو المربى، خشب أو كرتـون، تقـوم مقـام الكومودينـو،

موضوعة بعناية في فسحة الممر الضيق بين كل سرير وآخر، تحت المصابيح العارية المطفأة الآن والسلك الكهربائي المتدلي المأخوذ بمهارة من الفيشة الرئيسية، وعليها كتبهم ومجلاتهم المختومة بتصريح الدخول من قومندان المعتقل، وفيها علب الأكل المحفوظ.. لبن نستله مركز محلى، وبرطمانات المربى والبن والشاي والأباريق والكسرولات والأطباق الصيني أو الصفيح والاسبرياتة وزجاجة الاسبرتو والفناجين أو الأكواب وسائر عدة الحياة في الحبس.

لكن إذا ضاق بي خناق الحبسة، والزمتة، في بعض الليالي، غامرت بالخروج من ثقل العنبر ووخامة نومه إلى الفناء الرمل بين العنابر – نسميها "الجزاءات" – وأعب الهواء الليلي المبلل برطوبة البحر القريب ووعد الحرية المراوغة، وتجيئني على الفور صيحات الحرس: "مين هناك!" لتنبئني وتنذرني.

فأمشي ببطء، واضحاً، من غير مناعة، لا أقترب من السلك الشائك، وأنظر إلى سماء "أبو قير" التي أحسها محصورة، مزدحمة بالنجوم، ليس لي منها إلا قطعة

مجتزأة ومنتزعة عنوة، بينما هي فوقي شاسعة حتى البحـر الذي لا منال له.

قال: هناك، وفي ذلك الزمان لم يكن يفرقنا إلا الـولاء لفكرٍ ما. فقط، أي أننا - جميعاً – كنا نقبل الانضواء تحت رايات العقل والحوار. أي نعم، كانت رايات، مختلفة الألوان ومتنوعة النسيج، وليس مجرد شعارات مصبوبة، كنا نعرف – بل نرحب بالاختلاف ونحكمه بالنسق، وإن كان فينا مـن خرج عن النسق: الإخوان والصهاينة، فقط.

قالت: له: الآن هناك المذابح في الغيطـان. الضـرب بالسنج والجنازير والمطاوي قرن الغزال.. الإلقاء من النوافذ عنوة أو هرباً من تعذيب غير محسوب. الدخول بالرشاشات، وإطلاقها على أهداف محددة أو عشوائية لا فرق، في العيادة والمدرسة والصيدلية. هناك هذا الآن، أليس كذلك؟

قال: نعم هناك هذا. ولكن ضد مـن؟ ضـدنا كلنـا، دون اعتبار لأية تفرقة، أساساً على الأقل.

قال: لن يسقط هذا الوطن فـي غيبوبـة الظـلام، ولا غياباته.

قال: هذا إيمان عميق.

قالت: ربنا يسمع منك!

أما هو، في شيخوخته، فقد ضمها إلى صدره، حانيـاً، وعطوفاً، وعندما استيقظ وجدها تأتيه مـن يقظتهـا – هـي البكر، تلبس الروب دي شامبر الرجالي الأبيض الذي خلعـه قبل أن يأوي لنومه المضطرب، مفتوحاً على الكـومبنيزون اللبني الممزق من الجنـب وفيـه آثـار حـروق السـجاير المستديرة بحوافها السوداء المشرشرة. كانت حارة، ومتاعاً، وحرة إلى الآخر.

قبلته على فمه بشفتين كبيـرتين حـافلتين بالرضـى والتطلب الجديد معاً.

كانت في عينيها نظرة أقرب إلى الـولاء منهـا إلـى الشهوة، أقرب إلى العرفان منها إلى الغرام، أقرب إلى نظرة بنت ترفع روحها – وجسدها – قرباناً لبديل الأب لا نظـرة العاشقة الصنو على قدم الندية في فعل عشق خالص صراح.

كانت طفلة عبوساً غضوباً صعبة، تخطف الكرة مـن أيـــدي الأطفـــال أقربائهـــا أو زملائهـــا، ولا تردهـــا ولا تبكي بل تعاند.

دهشت قليلاً – وسعدت قليلاً – عندما قالت لي إن أباها كان يأخذها – هي أيضاً – مع أختها الكبرى كاترين، إلى المكس. كانوا يقضون اليوم في الكازينو نفسه الذي كان يأخذني إليه خالي ناثان، ربما قبل ذلك بسنوات قليلة، ذكرته – وهل ينسى؟ - بالنوافذ الزجاجية المربعة الكثيرة المطلة مباشرة على موج البحر الصخري المزبد. قالت إن زجاج النوافذ هذه كان يسحرها، سميكاً مضلعاً حوافه مصقولة ترق وتخف عند الأركان الخشبية الأربعة حتى يمكن أن تدخل في الحزوز القنوات المحفورة لها في الخشب، وقالت إن أباها كان يشوي البوري والمياس والجمبري في الفرن القريب، يمسح لحم السمك الطري بالزيت ويلفه في ورق زبدة بعد أن يتبله بالبصل والملح والفلفل طبعاً والليمون والزعتر وورق الغار الذي كان قد أتى به معه من البيت، وأن السمك كان يخرج من الفرن طرياً وشهياً، تحت جلد قشرته التي كانت تقب وحدها سهلة الانسلاخ، كان لحم السمك أبيض خفيف الاحمرار يشر بدسمه الطبيعي. فواح.

ضحكت للذة الذكرى، ولذكرى اللذة البائدة.

قلت: هل نحن شركاء في جريمة واحدة؟

قالت: لا. ليست الحياة جريمة. ليست الحياة في هذه الأرض جريمة، على العكس تماماً ومهما شابها أو تحيفها، فهي نعمة.

قلت: وشركتنا – على أية حال – مختلفة المصدر، مغايرة في الجوهر. ولكنها تصب في حضن واحد.

كانت تفوح من جلدها رائحة البن المحروق وربما فوح العنبر الخام.

وكانت يداه تحضنان ثدييها الصغيرين المطاوعين، وشغب الهوى يرج روحه، لكن تفكيره صافٍ.

قال: هناك هوة المضمون الطبقي، طبعاً. وهوة الدم.

قالت: لا تقل "الدم". هذه أقوال عنصرية غير جديرة بك يا حبيبي. لولا أنني أعرفك، في صميمك، لقطعتك أنت أيضاً عني. أعرف أيها القبطي العريق أن نفسك مضيئة.

قال، بعنف: لا تقولي أبداً "قبطي" لست – بهذا المعنى – قبطياً أبداً. لا أنسلخ عن جلدي، هذا بديهي. لا علاقة لذلك بأنني لست بطرس – كم أنكرت وكم أنكر، صياح الديك متكرر. لا، بل لأن هذا تحديد وتضييق وحصر، لا معنى له. ويفوح أيضاً برائحة خفيفة من

الطائفية. قولي مصري عربي نعم. قبطي يعني فقط مصري. روحي ولحمي معجون بلحم هذه الثقافة كلها مصرية عربية إسلامية. أفي هذا تفيقه شديد؟ أبداً. هو البساطة بعينها، هـو البداهة. فلماذا نعود للبديهيات دائماً؟

قالت: المهم هو الاختيار. اسألني أنا. ليس القدر مهماً، هناك، ولا مصادفة الميلاد. والاختيار تفكير وتدبير، وجهـد وإعداد: ليس إلهاماً ولا فطرة ولا نازعـاً غريزيـاً فقـط. الاختيار بناء صعب، مثـل الديمقراطيـة، مثـل السـعادة، مثل الحب، أقلها نعمة من السماء وأكثرها عمل وجهد.

قال: ها نحن في قلب ساحة الطابو: الحلم "القوسـي"، تحقق النبوءات الإلهية، وعودة المسيح أوالمسيا، ولـو بعـد ألف عام. على أي أرض يصنع المستقبل، على أي تـاريخ يقوم بناؤه. حضن الـوطن هـو حضـن أوديبـي بحـت، أم عمل دءوب واعٍ وحر.

قال: وتكسير الأطراف، وسرقة الروح، والرمي فـي معتقلات الصحراء عندكم، الممارسات العنصـرية البشـعة حقاًن تحت قناع الديمقراطية، مـن غيـر أي تعمـيم هنـا،

أو تجريد، بل في اللحم البشري الممزق وفي الروح المنتهك بلا تورع.

قاطعته: قلت لك لا تقل "عندكم" لا صلة لي بهم، لست أدخل تحت أي عناوين مجردة وشاملة وغير إنسانية.

فانحني عليها، قبلها في شعرها وقال:

- وهناك أيضاً هوة العمر. حفرة السنين التي لا عبور لها.

فقبلته بدورها على فمه لتسكته، فليس مـن ضـرورة – هنا – للجدل.

وعلى أنني عرفت هيلين وأحببتها بشكلٍ ما فلم أكن أنا الذي قلت لها ذلك كله، أو بعضه، ولا هي قالت لي. ولا دار بيننا هذا المشهد الجميل، ولا شيء منه.

كان العشق محظوراً ولا مجال له، يوشـك أن يكـون إثماً بالمحارم، هذه اللوليتا لم تكن لي، أصلاً، ولم يكن لي أن أعشقها. وكانت هذه المسائل والمشاكل أصـعب مـن هـذا وأعوص، وربما كانت أرضاً حرامـاً لا يـدري أينـا فـيم – ومتى – تتفجر ألغامها، وبمن تودي.

قلت: شيء واحد مؤكد: قدرة مصر اللانهائيـة علـى صهر كل شيء فيها، تحويل كل شيء: وافداً إليهـا عاديـاً عليها أو لائذاً بها، سواء – كل شيء – إلى روحها الخاص، إلى تبرها الخاص. وليست مصر تجريـداً ولا أغنيـة فـي التليفزيون. بل شعبها وناسها، يكدحون ويحبون وعلى الرغم من كل شيء يضحكون، وأصحاب نكتة، ويعرفـون قيمـة الحياة، فقط الحياة، دعك من المتعة أيضاً وأساساً بالحياة.

قال لي صاحبي الموهوم الـذي يبتعـث لـي فجـأة، على غير انتظار:

- وهل هنا مجال إعلان الإيمـان هـذا؟ ألا تحكـي حكاية؟ ولرواية القصص أصول ليس منها هذا البيان؟

قلت: لا أرتد عنه، هذا أصر عليه، أياً كانت القواعـد والأصول.

قال: أهذا إذن كل شيء؟ ليس فيه شيء كثير..! أيـن الطابو؟

وكان المركب، شراعه مطوي ملفوف بالحبل القـوي على الصاري، يتمايل مع الموج بـين حيطـان الأنفوشـي وحارات الجمرك. وستات الأنفوشي يخرجن إلـى النوافـذ،

ويجدن أن البيوت في خضم البحر، تمخر العباب، ثابتة مـع ذلك. وتدق الأيادي البضة الملفوفة بغوايش الحـنش الـذهب على صدور مليئة، وتفتفة سريعة بين الثديين، لطمأنة القلـب المرفرف: يا ختي، بسم ا الرحمن الرحيم، الشر بره وبعيد.
هو حلم ولا علم؟

فهل كنت أعود على مركب الليل إلى حضـن نـوت الواسع اللادن، أخوض غمرات الشوارع التي أعرف أن ليس لي غيرها، وأعرف أنها لا تغرقني.

النزوة الحادية عشرة

سوق المسلة

"أمر على الديار، ديار ليلى..."

فهل تنكرني الديار أم يستخفي بي عرفانها؟

سماؤها بلون الكوبالت الأزرق العميق فـي الغسـق.

لماذا يسحرني لون الغسق؟

أنذير الغياب والفقدان؟

أم نعومة التسليم لضياع الجسد الوشيك؟

أسمع سعف النخيل السلطاني على جانبي محطة الرمل القديمة، يهفهف. مازالت تخايلني حتى الآن، هـذه المحطـة القديمة، وكشك ناظر المحطة الخشبي المسـقوف بالقرميـد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءة مفقودة، واحترام الدقة التـي ولى زمانها.

أجلس في "كازابلانكا" في الدور الثاني، وراء النافـذة الزجاجية العريضة. الغيم في سماء الصبح البـدري ينزلـق

فوق البحر البعيد. أأنتظر بقلب واجـف أن تعبـر لـيلاي، نعمتي، بهذه الديار؟

ليلاي صغيرة الجسد، موسيقية الخطو، مرهفة الخصر حتى تكاد تطوقها أصابع يدي، فستانها الأصفر الفاتح فريـد في لونه ونسيجه وفي أناقة انسيابه على القد الرشيق الـبض معاً، ينوس على الساقين بسمانيتهما الممتلئتين، كاملتين فـي دقة سحبتهما، كاملتين في دوران خرطتهما، إيقـاع مشـيتها عندئذ يتردد الآن في ساحة روحي التي أظنها قاحلة خاويـة حيناً، وأراها حيناً مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أما زلت أنتظر عبورها؟

وهي المقيمة.

لست واثقاً أنني سوف أرى الآن من تعز رؤيتهن، بل تستحيل.

بل أعرف أن ذلك لن يحدث.

أهذه شذرات ممزقة أسمع حفيفها من الداخل ولا أرى لها أثراً؟

مادلين، وميريام، بشعرهما المنسدل الطويل، متطابقتين تقريباً في مشيتهما شبه الآلية التي تثير الجسم. ستيفو ذات الثديين الهائلين التي كان يحبها فريد اسكاروس وظل يذكرها في المعتقل وهو يمص سيجارته الأبدية بين شفتيه الطويلتين الشهوانيتين. نيتسا تافانيوتيس ملفوفة في ثيابها المحبوكة دوماً، أنيقة مفصلة الأوصال ولدنة ولها مهابة الطول الممشوق والجدية الخالصة والأنوثة الموضوعة تحت تحكم عقل دقيق الحسابات. ثم أرتميس – آه من إلاهة الصيد الجامحة الفاتنة – توقع بفحول الرجال، هكذا في خطوها، دون اهتمام، دون أن تلقي بالاً.

إيماءات الروح المبددة، تسقط أمامها أطلال البوابات الحجرية التي لم توصد قط، لكنها لم تكن قد فتحت قط.

أهذه ديار مازلت أرتادها، أم لم أعرفها قط، ولم تكن؟

وهل خطت رجلاي حقاً على هذه الساحات المظللة بوارف الأشواق، أم هي مواقع أضمرها بعد أن حددتها الأطياف الأولى، لن تبين، لعلها لم تقم، لكنها تعود، لا تتوقف عن مراودتي ومراوغتي.

أهذه ديار تنفيني، لأنها هي منتفية؟ أم تتغافـل عنـي، عمداً، تستنفرني.

زاد قديم محفوظ ومع ذلك لا تبلى بكارتـه، يتقطـر، يغذو النفس العطشى التي مهما رويت تظل صادية.

أيامها، بعد اندلاع الحرب بقليل، وبدء الغارات، كنـت أعرف جان جاك روسو، كتبت عـن جنيـات وحوريـات شكسبير في "العاصفة" وقرأت عن داروين وجوليان هكسلي، وتغنيت بأشعار كيتس وشيلي، وعرفت المعلقـات والكامـل والعمدة والحماسة، ودرسـت مستنسـخات عـن لوحـات بنتوريشيو ورافاييل وروبنز. ولكني لم أكن أعـرف سـوق المسلة.

قالت لي أمي: تأخذ الترام رقم ٦ من عندنا أمام البيت، يمر من راغب باشا حتى شارع الخديو توفيق، ثـم النبـي دانيال، ويحود في السلطان حسين حتى يدخل على الشـارع الذي نرى البحر في آخره، شارع المسلة، وتنزل في المحطة التي قبل محطة الرمل.

لكني تهت – أو سرحت، لا أعرف – وفضـلت فـي الترام حتى شارع سعيد، ونزلت، وسألت، ورجعت، وعرفت

أن شارع المسلة اسمه الآن شارع صفية زغلول، وتـذكرت وجه أم المصريين كما كانت أعرف صورته من المجـلات القديمة، الوجه المكتهل الصبوح وديع الأرستقراطية، دمـث ومترفع ورءوم.

قالت لي أمي: قل له صاحب البيت عايز اتنين جنيـه ونص ريال، أجرة ثلاثة أشهر مكسورة، ضـروري تجيـب معـاك الفلـوس، أحسـن معـاه حكـم بـالحجز. يا دي الجرسة، يا دي الهتيكة!

كنا نسكن في شقة أرضية فـي ٦١ شـارع الشـيخ خفاجى، راغب باشا، وهي التي أحرقت فيها ثمـار صـباي تلمساً لاحتراق طفولتي وأوجاع مراهقتي. كنت أرى صاحب البيت الأرمني ابن البلد ميشيل دفيسيان الذي يأتي أول كـل شهر، بالبدلة الكاملة المقيحة والبرنيطـة الرخـوة القديمـة ولهجته إسكندرانية قحة لا تفرق عنا ووجهه أسـمر طويـل – أصله جاء من طنطا – ولكنه هذا الصباح كـان مكفهـراً ضارب البوز.

كنت يومها في إجازة الصيف، ترجمت جـزءاً مـن رواية "السهم الأسود"، كنت يومها أحلم على صـورة زوزو

حمدي الحكيم في مجلة "الاثنين" القديمة العدد ٢١١ صـيف ١٩٣٧ التي حكى فيها مطرب الملوك والأمراء كيف لحـن "لما أنت ناوي تغيب على طول"، وكيف كان المرحوم حسن بك أنور وكيل معهد الموسيقى الملكي يقيم مـآدب الفسـيخ، والقهوة المعمولة بالسمن البلدي، والتي قالـت فيهـا زوزو شكيب إن الضرورة لعبت دورها: "وساقتني إلى نهج الطريق الذي كانت تتوق إليه نفسي"، هكذا، "نهج الطريق" و"تتـوق نفسي" بتلك الفصاحة التي أضـفاها المحـرر الفنـي علـى كلامها. وكانت زوزو حمدي الحكيم ترتدي ثوباً سابغاً لميعاً يحبك الجسم الممشوق بتفاصيله المغوية: الثـديان الناهـدان والخصر الهضيم المسوط والبطن المكور بـأهون تـدوير والساقان الملفوفتان. وكان وجهها أسمر التقـاطيع صـابحاً وغضاً وحيياً ومصري الإيحاء، وشعرها الغزيـر واضـح التجعيد وإن كان ملتصقاً برأسها، وذراع واحـدة مرفوعـة عارية وبضة وأما الذراع الأخرى فيغطيها جنـاح الفسـتان المنسدل على الكتف بانسياب.

وفي ظهر الصفحة المطبوعة – كلها- بالروتوغرافور المضبوط على لون السيبيا الرمادي، كنت قد سـرحت مـع

الراقصة سعاد فهمي بفرقة ببا بكازينو مونـت كـارلو فـي الشاطبي. وكان الأستاذ محمود تيمور بك مقرراً أن يغـادر مصر إلى أوروبا يوم أول يوليو وأن يسلم قصة الفيلم كاملة قبل سفره ليقوم المخرج الكبير محمد كريم بوضع السيناريو، بينما "أبحر إلى بيوت يوم الأحد الماضي مطـرب الملـوك الأستاذ محمد عبد الوهاب ليتسلم بنفسه نيشـان الاسـتحقاق الذي تفضل فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية بالإنعـام بـه عليه، وسيعود بمشيئة ا في يوم الثلاثاء كي يرتب أعمالـه في مصر قبل أن يبحر إلى أوروبا في منتصف شهر يوليـو المقبل".

لماذا أحتفظ حتى الآن بهذه الأوراق التي اصفرت الآن ورقت،فيها هفات النزوات والأحلام القديمة التي لـم تنـدثر قط، هبات شهوات الصبا الأول وغياباته، خيالات جسـدانية دائماً؟

من شارع صفية زغلول دخلت من ممر جانبي صغير جنب آخر محطة قبل محطة الرمل، إلى سوق المسلة.

بدهتني روائح السوق النفاذة الفاحشة: اللحـم الأحمـر المشبوح مصقول الجنوب وطـري والأضـلاع المكسـورة

بالساطور بيضاء حادة البياض، زبل الطيور الطازج والقديم، نفح الفراخ المتميز الحريف، وكانت الديوك الرومي تقوقيء فجأة بصوت ثاقب مرتفـع، سـيقانها مربوطـة بالأقفـاص المستطيلة المصنوعة من جريد النخـل الرفيـع بقضـبانها المتوازية المتقاطعة، بينما ترتفع أعناقهـا السـوداء باللغـد الأحمر المترجرج والرءوس مستدقة المناقير بشكلها البدائي الموحش، صوصوة الفراخ والكتاكيت البلدي وهديل الحمـام وانفلات الأرانب فجأة من طرف إلى طـرف فـي سـجن الأقفاص.

السوق يتردد فيه الصدى، ويتجاوب الكلام والصـياح لأنه عالي السقف وحيطانـه مكسـوة بالقيشـاني الأبـيض النظيف، وجدت الجزارين في داخل أقفاص زجاجية أخرى، تحت اللافتات المكتوبة بخط ذهبي على أرضـية المرايـا: "تاوضروس وأبناؤه. لحوم خنزير" ورأيت وجه أبـي مـن وراء الزجاج.

كان جالساً إلى مكتب صغير جداً تكدست عليه دفـاتر الحسابات الضخمة بورقها السميك الذي يبدو، حينمـا يغلـق

الدفتر، مقعراً إلى الداخل بتقويس منتظم ولونه أزرق خفيف فيه خطان رفيعان جداً بالأحمر.

كان طربوشه ما يزال مكوياً حاد الكية، وجهه الناحـل بعظم خديه الناتئين. ابتسم لي، بابتسامته العذبة. وكان مندى بعرق خفيف ولكنه كان يلبس ملابسـه الكاملـة: القفطـان الحرير السكروتة والبالطو الجبردين. أسند عصاه الأبنـوس، ذات المقبض العـاجي الـذي علـى شـكل رأس صـقر، إلى المكتب الصغير، وكان يراجع، ويحسـب، رصـة مـن الأوراق والفواتير وبوالص الشحن وإيصالات بضاعة السكة الحديد وحسابات تجار الجملة.

قال لي: ربنا يسـهل ويعـدلها. الليلـة إن شـاء ا ع العشا تكون فرجت بإذن يسوع، ونجيب الأجرة.

ولف لي حتة كبدة لدنة في ورقة لحمة: قـول لسـتي وست الكل تشوحها وتوضبها مزة ع العشا.

كان أيامها يقضي النهار بعد النهار يلف في السـوق، من غير شغل، فإذا جاءه الرزق من ربنا اشتغل، باليوميـة، بحسابات أولئك الجزارين أو تجار الطيور والسمن والحبوب والبيض، بلدياته أو زملائه السابقين من قبل أن يخسر كـل

شيء في الأزمة. بل كان أحياناً يعمل بالساعة، أو بالشـغلة المحددة، ليرجع لنا باللقمة، والمصروف. وكان دائماً راضياً ودمثاً وبشكل أو بآخر يدبر لنفسه كأس الكونياك أو العـرق، والمزة، يشرب مع أمي، ويعـزم علـي وعلـى أخـواتي، أما أجرة البيت...

كم تحملنا يا أبي – أنت، وأنا فيما بعد – من أجل لقمة العيش، بشرف، حتى يعيش من نحب، فقط يعيشون، ولكـن بكرامة.

وكم أنكرت نفسي – فيما بعد – بوهم هـذا الشـرف وتلك الكرامة التي يظل يمتهنها الخنازير.

هذا الوهم الذي لا ثمن له في السوق وربما لا محل له في هذا العالم.

بعد أن صلب المسيح، وطعن، وروي بالخل، وألـبس تاج الشوك وسخر منه العساكر الرومان وسفلة المتعصـبين –وغفر لهم – من تلك التي تلقته بعد أن أنزل من على خشبة التعذيب؟

المجدلية؟

أم مريم الأخرى؟

من تلك التي تمسح ساقي المجهدتين بشعرها العطـر الغزير؟

"الليل مملكة البوم والفئران والنساء".

ضحكات الصبيين الوحشية تقريباً، في فنـاء محطـة مصر الواسع الفارغ الموحش تتردد لها أصـداء إذ تـرتطم بالسقف الزجاجي العالي والحيطان النظيفة، الساعة الرابعـة وقطار سيدي جابر يدخل على القضبان اللامعـة، صـفيره يدوي بمهابة، وترحب به صدورنا، ونصعد، ومعنـا بنـات مدرسة نبوية موسى الراجعات إلى الرمل، والطلبة يتبعونهن بأعين لامعة مكتومة الحيوية، وهمسات المعاكسـة الخافتـة المؤدبة الحيية تقريباً.

قال لي شفيق: وله.. أنا عايز من ده!

كانت البنت سمراء غضة ملفوفـة وخجـولاً، تضـم الكراريس والكتب إلى نبتة الثديين البرعميين بحركة بنـات المدارس المأثورة المشهورة، ولكن نظرة عينيها الغـائرتين فيهما غواية أنثوية مبكرة تطعن الأجسـام المتفتحـة علـى عرامة اليقظة الذكورية البكر.

كنا قد أخذنا كأسين من الدندرمة المشـكلة بالفسـدق والشيكولاتة والمستكة – الواحد بستة مليم – مـن صـندوق الجيلاتي في ساحة فسيحة خالية في شارع صفية زغلـول، على الرصيف المقابل لسينما ريالتو، يشغله فتـى اجريجـي طموح استطاع بعد ذلك أن يستأجر هذه السـاحة وأن يقـيم عليها "إيليت" ذائع الصيت.

كم دفعتني الوحشة – بعد ذلك بسنين، وربمـا حتـى الآن؟ - إلى المقاهي بحثـاً عـن لحظـات رفقـة وأنـس بالصحاب، إلـى الفريسـكادور وإيليـت وقهـوة فرنسـا، ولورانتوس والكريستال والتجارية وكازابلانكا وباسترودیس، وحتى "قهوة الأشباح" التي كانت –على ضيقها ووعورتها – ساحة مباريات الطاولة أو الكوتشينة بكل حموتها وصـخبها وضجيج تحدياتها ووهج انتصاراتها وحبوط هزائمهـا بـين رضوان القفاص وأحمد قنديل، بين فتوح القفـاص وجمـال حشمت الشاعر الرقيق الذي عاش وعمل سنين طـوالاً فـي الكويت والعراق والذي وصمني بعد ذلك بالفجاجة والسماجة وثقل الدم والذي كان يقول عندئذ: "ما خلاص، بعـد سـنين تحط إيدك لا مؤاخذة على جسم مراتك كأنك بتحط إيدك على

جسمك، ما تفرقش، ولا تحس حاجة!" أو بينهم أو أيهـم وأي من البوابين والبياعين في "أوريكو" الشاهقة التي تكبس على حارة القهوة وتسودها. وأما أنا فكنت – ومازلت –لا أعرف أية لعبة، ما عدا لعبة الكلمات والمعاني التي ما أشد جديتها، وكنت أموت، معهم، مللا وضيقاً بنفسـي، وأكـتم حسـي، كعادتي.

وعلى أي حال، فما العلاقة؟

ما العلاقة بين أي شيء وآخر، مهما بدا مـن توثـق الروابط وإحكام الوشائج؟ ومهما كانت هذه الـروابط قائمـة وهيكلية؟ ما العلاقة؟

ألا تكف عن فلسفة الصفيح هذه؟

أم أنه – في النهاية – ليست كذلك تجري الأمور؟

كان شفيق راقم بسطوروس، ابن ناظر محطة السـكة الحديد في صفط الملوك الذي يملك قيراطين أو فدانين يعني، ا أعلم، والذي كنت أحبه كثيراً، يأخذ معي كأس الدندرمـة من الصندوق الأحمر اللامع نظافة وأناقة، علـى الرصـيف الآخر أمام سينما ريالتو، وبينما هو يمص العجينـة الدسـمة الملونة المثلوجة، يعبر تقاطع السلطان حسين، ويدخل علـى

شارع المسلة – صفية زغلول، ويمر على فرشة بائع الصحف شبه العميل شبه الصديق، وكان الرجل الكهل الداكن اللون وسيم الملامح بشاربه الأبيض المنمق، يحتفظ له – من تحت لتحت – بمجلات الصور العارية اللامعة، باردة الملمس، وكتب من نوع "بئر الوحدة" و"اعترافات مومس" و"مذكرات إيفا" مطبوعة على ورق أصفر خشن بالعربية – مليئة بالأخطاء المطبعية، وهو غير مهم! – وبالإنجليزية مخصوص للعساكر الإنجليز والأسترال والأفريكاندرز. كان يحوم حول الفرشة عندئذ، ولد حافي القدمين بجلابية نظيفة، هو الذي أجده الآن، بعد نصف قرن، صورة طبق الأصل من أبيه الشيخ الوسيم داكن السمرة بشاربه الأبيض المنمق وعينيه اللتين تحملان، مثل أبيه، إثم المغامرة داخل المحظور. وكان الرجل صديقاً لجاره حسين أبو الليل، التروتسكي القديم الذي كان جزمجياً صناعياً كامل الإتقان لصنعته بل محباً لها حتى العشق، وكان يعمل طول النهار حتى الليل في الحيز الضيق المحصور بين حارة توازي شارع صفية زغلول من وراء خلفية محل الأحذية الراقي الذي تقع واجهته الأنيقة على الشارع الكبير.

تطابق الصور. تكرار الصور.

ألا أعرف غير الصور، بـالروتوغرافور أو بغيـره، صور خير وأبقى من الأصل. ربما. ولكن أين الأصل؟

الآن والهواء الرطب يضرب وجهـي برفـق عبـر نافذة"ايليت" المفتوحة على نصف قرن من الزمان تمر بـي تلك المرأة النارية، جيبتها البنطلون الواسعة حمـراء تحبـك ردفيها، بقوة، ثم تنزل، فضفاضة، مزهوة متفجـرة بلهيبهـا الحيواني النباتي معاً شعرها أحمر مهوش مرفوع ومشـتعل، كأشجار البانسيانا المتأججة هنيهة، أياماً ربما، ثم تنطفيء.

كانت الثورة قد قامت منذ سنتين، وكنت مـع أوديـت ولقيت حامد عبد ا مع أحمد، جالسين على الرصيف الواسع المزدحم بالناس والبهجة واللغط الأنيس واسـترخاء مسـاء الصيف، كان إيليت عندئذ مفتوحاً على شارع صفية زغلول. وعزم علينا بإصرار. وأخذنا الجيلاتي المستكة الشهير وقال إنهم هتفوا بسقوط الديمقراطية وسقوط الحرية وقال إن هـذه البلد ستمر بمحنة صعبة وطويلة، قلت نعـم ولكـن طريـق السعي إلى العدل الاجتماعي وطرد الاستعمار طريق وعـر ولكن عندك حق، وسكت أحمد، بحكمـة، كعادتـه، وكانـت

أوديت في التايير الكحلي الأنيق، رشيقة وجافة القد تقريباً، عيناها العسليتان فيهما معرفة مسبقة وتكذيب ولمحة مكر وخوف وترقب معاً. صدق حدسها فيما بعد.

وكأن الزمن لم يمر على الإطلاق.

أمر على الديار.

هذا الشوق ذاته، هذا الاضطراب الداخلي، وطيش المغامرة من غير حساب للعواقب، وهذه اللهفة ذاتها.

قبل هذا الرصيف الواسع كنت أمر على كشك عبد المنعم الذي كان يشتغل معي في الشركة، وعرفتني به نعمة، وكان يبيع الصحف والمجلات والكتب العربية والفرنسية بعد الظهر. وكان شكله يشبه الديوك الرومية – وهو يطل بعنقه الطويل من نافذة الكشك، ومنقار في وجهه الشاحب ذي اللغد، وعيناه جاحظتان وحتى صوته يقوقيء أحياناً عند الانفعال أو الاستغراق في البيان والحساب وكنت أشتري منه "المجلة الفرنسية الجديدة" العدد الواحد باثنين وثلاثين قرشاً وروايات فرنسية نصف عمر أوريليا لجيرار دي نيرفال وحكاية مانون ليسكو والشيفاليه دي جرييه للأب بريفو، والجولات الأدبية لريمي دي جورمون، المطبوعة في

١٠ يونيو ١٩٠٦ وكنت أدفع حسابي بالتقسيط كـل شـهر عشرين قرشاً عند قبض مرتبي وكان عبد المنعم يقف علـى باب الخزينة – من الخارج – يرصـد العمـلاء ويسـتوفي الأقساط، وقرأت في المجلة الفرنسية الجديدة أحاديث لجورج براك وأشعاراً لرينيه شار وشذرات لأنطونين آرتو وقصصاً ليوجين يونيسكو ومذكرات غير منشورة لمارسيل بروسـت واستشهاد الحلاج في بغداد بقلم لـوي ماسـينيون، ولكتـاب وشعراء كثيرين جرف أسماءهم بحر التاريخ الملتطم.

أما رفيق تلك الأيام الذي صاغ مني جزءاً لا يضـيع أياً كانت صروف الأيام فقد اعتنقت نجـواه: "أيهـا البحـر اللانهائي الذي أحالت دموع البشر مياهه العميقة إلى أمواج من مرارة لاذعة. الفيض اللا محدود الذي تصـطخب فـي جزره ومده أمواج الموت، أما زلت جامحاً جائعاً إلى المزيد وقد لفظت الحطام الباقية عن عواطفك إلى سـاحل المـوت المقفر الماحل؟"

تطعنني – على عكس ما تريـد – امـرأة نضـرة ، مخروطة الساقين في الشراب الأسود الشفاف والحـذاء ذي الكعب العالي الرقيق، وهي تقول مرحبة ومحتفية بي:

- ماذا يمكنني أن أفعل لكي أجلب لك السرور؟

أبتسم شاكر وعارفاً أنه سوف يعز علي السرور.

وسوف أتنكر لها.

وإذ يخرج الناس من سينما رويال إلى شـارع فـؤاد وشارع الكنيسة اليونانية وشارع المسلة متقاربين متماسـكين في نعومة الليل الرقيق المندى كأنما يخشون شيئاً من عمقـه المخوف، يتهامسون، لا يرفعون صـوتهم كأنمـا يـدارون بالهمس روعاً يسقط عليهم من بين أسطح البيوت ومن أبراج الكنيسة ومن سقف السوق المخروطي ومن حواف السـماء، يضحكون بخفوت ويتلمس الرجال والنساء من دفء أجسامهم عزاء وقرباً ورفقة في مواجهة هذا الليل الصـوت، عندئـذ كنــت يــا نجمتــي يــا نعمتــي أفتقــدك حتــى لا تفدحني جفوة تلك السماء وغربة تلك النجـوم يضـربني هواء الليل القادم من الميناء الشرقية ومن موقف ترام البلـد، محطة الرمل خالية إلا من حفيف النخـل السـلطاني علـى الجانبين والليل ينالني في النهاية، ينال مني أغواراً مفتوحـة كجروح، أمام صخر النجوم وقفار السماء.

وليس هناك إلا طريق اللبانة وشارع الشعرى اليمانية وسوق المسلة، أذرعها قد أصبحت شارات ممزقة تسبح في الزرقة الصامتة.

النزوة الثانية عشرة

الرأس السودا

لن يصدق أحد.

سيقال إن هذه حيلة أخرى – وقديمة – من حيل جنس القصاصين، للإيهام، وحبك التشويق.

أبداً.

ليست هذه النزوة من صنعي على الإطلاق، أو تقريباً على الأقل.

ليس لي أي فضل في هذه القصة – يعني – إلا أنني حررت فيها قليلاً، وأعددتها للنشر.

تلقيت هذه الرسالة كما هي، بالنص تقريباً، من هذه التي سوف أسميها نايرة، وليس اسمها "الحقيقي" ببعيد عن نغمة هذا الاسم.

لم أعرف ماذا أصنع بها، إلا أن أنشرها.

صدقوني.

فهل تبقى قصتها هي، نـايرة، بكـل قـوة تعبيرهـا وبساطته وبراءته ومفاجأته، أم تصبح قصتي، أنـا، لمجـرد أنني نشرتها، يعني أضفت إليها صوتاً هو صوت هذا "الأنا" الذي قيل مرة إنه مهيمن، ليس في هـذا العـالم القصصـي غيره، وفي ظني أنه فقط يبوح ويفضي ويشط دون تحـرج بقدر ما يستطيع، ويضع نفسه – هذا الأنـا – بـين حشـد الأشباح والأشياء يغوص ويطفو في يمها الملـتطم، ويحـط، دون حيلة تقريباً.

أحق إذن أنه ما إن دخل هذا الصوت – هذا الأنـا – إلى هذه القصة حتى أصبحت شيئاً آخر؟

لكنه، هذا الصوت، لا يفعل إلا أنه يقدم الحكاية – كما أقدم الآن، فهل هو أنا؟

هأنذا – أو هذا الصوت الذي لا أعرف لمـن هـو – يعطل صوتها:

"ولا بكل قدراتي في الخيال كان ممكناً في أية لحظـة أن أتصور احتمال أنني أقع في هذه الكارثة المحكمـة بـلا منفذ ولا كوة صغيرة يبدو لي منها ضوء أي ضوء.

ولا بكل الإمكانيات المتاحة لي ألقى منطقاً أفهـم بـه هذا الذي يحدث، أدرك به أين الخطأ، أجد به ولـو تبريـراً واحداً للذي يحدث.

غرقت في الحياة من زمان من زمان. في نفسي وفي الآخرين.

كنت أريد طول الوقت أن أصفو، أصفو مـن عكـارة الآخرين، عكارة الأفكار والأوهام، عكارة الطقوس والقـيم وكل ما يجعلني ثقيلة، كل ما يشدني إلى تحت. وفي كل مرة كنت أصطدم بتناقضات الآخرين وشرهم وعجزهم، وعجزي أيضاً في كل مرة كنت أتعذب وأطحن وأسحق سحقاً. فقـط كنت دائماً أكمل، أكمل الحكاية للآخـر. وأخـرج الخـروج الجميل الصافي القوي الفاهم أو المحبط الـتعس الصـامت العاجز، سواء دائماً كنت أحس أنني مثل ورقة النشاف فـي زجاجة حبر. أنا اليد الممسكة بها، وأنا ورقة النشاف.

عندما كانوا يسألونني وأنا صغيرة: عايزة تطلعي إيه؟

كنت أقول: رقاصة.

كل العيال الآخرين كانوا يقولون أشياء أخرى. فقط أنا دائماً كنت أقول: رقاصة. طبعاً ضربت وخوفت وأرهبت. لكن ظل الحلم: "أكون رقاصة وعندي بدلة رقص".

يوم أن اشتريتها كنت أكلم نفسي في الشارع، وأضحك وأنا ماشية وحدي: "الشنطة في إيدي، وفيها بدلة الرقص بتاعتي أنا، أنا وطظ في الدنيا كلها!".

كنت قد حسبت حسابات كثيرة: أن يكون عندي فلوس أشتريها، أين أجد بدلة رقص من أيام زمان، من النوع البمبة. أن يكون عندي شجاعة وألبسها أمام الناس. أخفيها أين؟ في غرفتي؟ صدقني لو قلت لك إنني تعبت، تعبت جداً من الرغبة، من الجري وراء أفكاري وأحلامي. وعندما اشتريتها أحسست أنني إذا لم أصرخ سأنتحر وجريت إلى أقرب بيت لأحد ممن أعرفهم ممكن أن أصرخ عنده بكل الجنون والسعادة، وأنا أضحك: "أخيراً، بقى عندي بدلة رقص!".

أنا في داخلها، لبستها، ملآنة بالخرز، منسدلة على جسمي. وجسمي فيها جميل، مثل الحلم. أنا مثل الحلم. أكيد كانوا هكذا في الحرملك زمان. ولكن عندي ما لم يكن

عندهم، الاختيار والحرية. جسمي في بدلة الرقص طالع من السجاد العجمي من البلاط الرخام من إبريق فضة من صوت مياه من تداعيات عود من حرير ملقى. كل ذلك كـان فـي خيالي. فقط كنت دائماً أرى نفسي وحدي في ركن وحـدي ألف وأدور في بدلتي الملآنة بالخرز أسمع رش صوته ألف ألف وأرقص في غرفتي وأعدي، أجتاز كل قوانين الأجسام، ألتحم بأقصى ما يمكن بالأصوات والموسيقى، جسمي يعدي الحدود. أرى نفسي في حدوته في زمن آخر، ولا يتبقى إلا جنوني، وجسمي في التمام . تام وراقص بالموسيقى، فـي الوثن."

كانت نايرة، على ما يبدو من سكونها، بل وانطوائها، عاصفة جامحة من الحسية، والانطلاق، والبصيرة الأنثويـة المضيئة.

وجهها أسطوري تقريباً مأخوذ من نقش علـى جـدار عمره آلاف السنين مازال غضـاً وحيـاً. هاتـان العينـان المصريتان لن تجد مثلهما إلا في هذه النقـوش واللوحـات، وفي الوجوه التي تفجؤك أحياناً في الشارع، وفي الغيط، في أي مكان من هذه الأرض، على غير انتظار، فتهزك وتقلب

في روحك رواسب الزمن كلها. عينان مسحوبتان جاحظتان قليلاً جداً ومعمورتان بخصب آلاف السنين.

قالت، ببساطة، دون أي بذاءة أو تقحم، لأنها تقرر حقاً أولياً وبديهياً لها:

عايزة راجل! عايزة أحب!

هل كان علي داود قد أراد أن يرسمها عارية، سمراء، جسمها كله يترقرق بموسيقى طلب الحب وطلب الرقص؟ الألوان الخضراء والرمادية الأثيرة إليه ظلمتها، وجنت على هالة روحية لا يمكن أن تنتقل إلى صورة أياً كانت براعتها، هالة تتجاوز وتفوق كل ما يمكن أن تعطيه معاجين الألوان وقماش اللوحات ويد الفنان الصناع، تطفو من فوقها ومن ورائها، وتترك التجسيم – على كل حذقة – خشناً وجافياً.

"مهما قلت لك إلى أي مدى أحب الرقص لن أقدر أن أصف لك يا أستاذي. في الحقيقة أنا كلي أختزل في الرقص.

الشيء المهم الذي لم أحسب له حساباً كان الآخرين.

الآخرين.

كنت أريد أن أرقص، فقط. هو هذا الـذي كـان فـي كياني فقط.

ولكي أحقق حلمي للآخر، لآخر خطوة، سافرت! إلـى لوس أنجيلوس.

ساعدني الحظ، أو أتعسني. رقصت في حفلـة فيهـا صفوة من مفكرين، وأدباء، وفنانين، وأسـاتذة جامعـات، مصريين وعرب وأمريكيين وأوروبيـين أيضـاً. صـفوة. وكانت مصيبة:

- غزالة آتية من الصحراء، من الأهرامات.
- تُرى لو نام الواحد معها، فكيف تكون؟
- أنت تستطيعين أن تكسبي جيداً جداً هنـا دعيـك مـن البلاهة!
- جسمها حلو بت الكاب، مهلبية! وملهلبة!
- فاهم النظرة يا أستاذي؟ والتلميحات؟

دفنت حلمي ورجعت، بدلة الرقص في كيس دولابي. أن أدفن الحلم خير من أن أبتذله.

الرقص عندي مثل كلام ربنا. وكلهم كفرة أولاد كلب. أرقص في غرفتي، وحدي، أحسن!

في الرقص أرى ربنا، وأكلمه، وأعطي له نفسي، بكل ما حصل في حياتي، بكل ما عشته، بكل الأشـياء الحلـوة والمرة، والأحداث، والأحلام.

في الرقص نفسي من جوة تتعرى العـري الجميـل، وتظهر، تتضح، تتجلى كل شيء يكون رحباً وواسعاً وحـراً وبسيطاً.

أظل أروح وأجيء وألف وأدور وأتحرك، بل أجـري أحس بالتعب، أحس جسمي يهلك، أحس جسمي يعدي التعب ويكمل، يكتمل فـي انصـهاره بالموسـيقى. لحمـي هـو الموسيقى. كيف لم أكن أطير؟ وا العظيم أنني في أحيـان كثيرة أسأل نفسي هذا السؤال، ويكون ذلك بجد وانـدهاش حقيقي:

- إيه ده؟ هو أنا لسه ع الأرض؟

باختصار أحس، وأرى، وأعيش من منظور آخر فـي بعد آخر، خالص.

كنا في الراس السودا، بعد فيكتوريـا. الغيطـان مـن ناحية، والرمل من ناحية ينتهي إلى البحر. والبيوت الواطئة القليلة، بحدائقها الواسعة المزروعة بحب ولكن من غير أناقة

ولا رهافة، نباتات الخس والجرجيـر والطمـاطم والفلفـل البلدي. أشجار التين، والنخل، وتعريشات العنب من خشـب خام غير مدهون متقاطع وداخـل بعضـه بعضـاً، عاشـق ومعشوق، تتدلى عليه الغصون المورقة والعناقيـد المكتظـة المثقلة كأثداء متقاربة وتنز باللذة.

الراس السودا سدرة تتوسـد السـديم، سـهول سـينا وصهدها وصرامة صروحها، كلها مسددة مصوبة إلى قلبـي انصباب صبابتي وأسر صمتي.

كان حفيف النخل وهدير البحر وخوار الجمل الرابض تحت القمر رقصتها وطقوس تقديسها. هل أنت أيضـاً مـن عابدات القمر؟

حتى من قبل أن تولدي يا نايرة بزمـان، كنـت قـد رأيتك، وعرفتك، منذ ما يقترب الآن من نصف قرن بحاله: " في تلك الغلالة الشفافة جسداً خمرياً من الموسيقى والزبـدة وعجينة الضوء العاري. ترتعش رعشات متطاولة متـوترة، ثم تميل من حرارة السحر البدائي المنبعث عن اللحم الحـي الحار. كان جسدها ورقصـتها شـيئاً واحـداً هـو ثـدياها المنتصبان المرتجفان وأنـين رحمهـا المرتعـد المحبـوك

وانحناءة ظهر طويل ناعم. وركاها يهتزان كأنما يخوضـان أمواجاً ثقيلة من الرغبة. هذا العري يتقلب وينطـوي علـى أحشائه يتلمس في حمى ظلمتها سراً، ثم يدور ويتمدد وتتفتح حناياه المبللة كأنما تستقبل، في رعشة اللذة، تلـك الهجمـة المشدودة الفرحة المخصبة".

لكنك الآن تعرفين، على نحو ما، أكثر مما عرفت:

"أنا دائماً غيرهم. لست مثلهم.

دائماً الكرة التي أرميها تجيء "أوت" أو فـي الغلـط. هنـاك قانوني. وهناك قانونهم. هناك الذي يقولونه. وهناك الذي يفعلونـه. وفي معظم الأحوال الأشياء ناقصة ومتقطعة وملوية وكاذبـة وغيـر مفهومة عندي".

قلت لها: حياك يا نايرة. على مهلك شوية. كل السواد ده مرة واحدة!

"معظم الأحيان تنتهي بصدامات معهم. هـم طيبـون، خيرون، وأنا مثل الزفت! هم يحبون المال – شيء طبيعـي – وأنا علاقتي بالمال بالضبط مثل علاقتي بالجرائد القديمة.

ألتئم بالليل مع نفسي. وفي الصبح أكون مثل انكسار جغرافي في طبقات الأرض.

لهم إله مثل "أبو الهول" رابض على كرسي فوق، جبار، منتقم، بالمرصاد، وأما أنا فغير ذلك. ربنا عندي محب حانٍ غفور وعارف، يحبني ويفهمني.

ليس هذا فقط. من زمان لا أحب كل العقائديين، والمذهبيين، الناصريين والشيوعيين والمصرفتاتيين وطبعاً الإخوان المسلمين والجماعات، كلهم عندهم مشاكل نفسية أو غيرها يخفونها بالكلام الكبير، والأقنعة، كلهم تنقصهم حتة أمانة عميقة وضرورية"

قلت: لا يا نايرة. هنا أنت مخطئة اسمحي لي فيهم كلهم المؤمنون بجد وحق، أولئك الذين عندهم حكاية المثل والمبادئ حكاية حقيقية، والتضحية بالنفس، وحب مصر أو حب الإنسان الكادح أو حب الإنسان المسلم، والعمل أيضاً، الحب باعتباره عملاً. بعضهم موهوم، بعضهم ساذج ربما، ولكن الإيمان الحار في أعماقهم، حتى لو كانوا يخدعون أنفسهم، غير مدركين أنهم يفعلون ذلك. بعضهم – وخاصة قياداتهم – كذاب، ومضلل، أو مرتزق، صحيح. ولكن سوادهم خالص الإيمان وإن مغرر به أو ساذج.

كنا في سيناء الجبال الصارمة جهمة وعرة صخرية بلا رحمة، الهول الجاثم في شعابها كأن نار العليقة نار الرب على أهبة الاندلاع في أية لحظة في أي مكان، ثم واحات الخضرة الخبيئة، والنخيل المتكاثف الحنون.

"أمام هذه الجبال، أمام هذه الأرض في متسعها الشاسع، أمام هذا البحر، عرفت ربنا، عرفت نفسي، عرفت أنني في سواد وانحطاط حضاري وإنساني.

كم مرة عيني انكسرت على الجبال، ولم أكمل نظرة واحدة.

كم مرة أحسست أنني أريد أن أبكي وألطم وأولول وأشيل التراب وأحطه على رأسي وأجري وأرتمي.

كم مرة اختشيت من الجبل وقلبي تاه في صدري من متسع الصحراء، وأحسست أنني مثل قطعة بلاستيك تافهة ومرمية على الرمل."

وملقاة يا نايرة على هذا النص نفسه، مغمورة في كتابتك أنت، لا أملك أن أمد لك يداً، أي يد.

"وكم مرة انتشيت.

"وكم مرة عرفت أنني في سمو سـامق، حضـاري، وروحي معاً الشيء الوحيد الذي أحسست به تماماً أنه في، أنني سأكمل نظرتي، أنني لن أخجل من نفسي ولن أنظر إلى تحت، الشيء الوحيد الذي سينشد له عمودي الفقري علـى استقامته، الذي أملك به أن أرد به، بشكل أو آخـر، علـى هذه النغمة بدون أي تنشيز، وبعمق، ربما بصوت أخفـض، هذا الشيء الوحيد هو أنني أملك أن أرقص.

الرقص هو ردي، وتفاعلي، أمـام الجبـل والبحـر والأرض،

وكل شيء.

الرقص هو حلمي وخيالي وجـديتي وموضـوعيتي وبحثي الدائم الذي لا ينتهي.

تعبت تعبت من حمل طلاسم نفسي، وعدم قدرتي على الذوبان في الموجود والمتاح، من الاصطدام والألم والوحدة تعبت.

عمري ما حملت فكراً أو أحسست بإحساس أو عشت موقفاً اخترته إلا وكنت في منتهى الخلوص لـه. إخـلاص أظنه ساذجاً جداً أو ربما بريئاً جداً، لا لأحد، بل لفكرة. دائماً

أحس وأنا بصدد أي فعل أنني في الحقيقة في مواجهة فكرة، فكرة فقط، لا نفسي ولا الآخر. عندئذ أكون في منتهى التفاني غارقة في الفعل لآخره ومداه، حتى لو كان أنني أنظف بلاط المطبخ أو ألعب مع طفل أو أعوم في البحر أو حتى أتفرج على فيلم. ودائماً أخرج هلكانة ومستهلكة.

تعبت وأنا أحصر نفسي داخل قوانينهم، بالعافية، عشت أياماً صعبة، وشهوراً، وساعات مرعبة. لم أكن أعرف أين أذهب؟ وماذا يحدث؟ وأين منقذي؟ وأصلاً ما هو؟

أكره بيوتهم وأثاثهم وموسيقاهم وأكلهم – ونهمهم في الأكل – ولبسهم وقعدتهم التمثيلية المصطنعة وطريقة فهمهم للأشياء وطريقة كلامهم حتى وأنا وحدي (الحل الذي فرضته على نفسي في وقت ما، حتى وأنا في قلب الوحدة بعيداً عن كل حياتهم) كان الجحيم.

ما هو منقذي؟"

قلت: أنت ممتلئة بجسدك، وبالنعمة.

وكنت أحدس فخرها بجسدها عارياً – أو فـي بدلـة الرقص – كبرياء الجسد وعزته.

يتعدى حدود جسدانيته.

أما وهي ترتدي ملابسها فليس هناك هذا الاعتـزاز، بل هي مغتربة، مسلوبة. في أحيانٍ تستعيد شيئاً مـن هـذا الاعتزاز في ملابسها الفضفاضة حيناً أو المفتوحـة حينـاً، وحينما ترتدي جلابيتها علـى اللحـم. سـاقاها السـمراوان المسحوبتان برشاقة عندما تطرحهما بحرية وهـي تتحـرك تعيدان إليها كبرياءها. لأنها وهي عارية – أوفي فـي بدلـة الرقص – حرة وموجودة. هي نفسها، متملكة نفسها.

سيدة الفقه الجسدي.

قلت: ما أبعدني عن هذا الفقه كله. أنا ابن أدنـى قـيم "البورجوازية الصغيرة" كما يقال. ألذلك تمردي عليها؟ ألذلك تعلقي – بل استماتتي – في الجسد الذي يستحيل، ويتعدى؟

"أحببت.

"لا يقل لي: طبعاً!"

"هذا شيء مختلف.

وقعت في بئر الطين وملأني النور ورحت معه للآخر، ونزلت في عمق نفسي ورأيتها وجهاً وجهاً.

هل جربت أن تمسك بالطين الطري في يـدك؟ طـين كثير تحطه على كل جسمك. يغطيك بطبقـة مـن الردغـة اللزجة. هكذا غطاني الطين في بئر حبيبـي. غرقـت فـي الطين الجميل لغاية أم رأسي.

هل جربت أن تأوي إلى حضن جاموسة كبيرة وتسند رأسك على بطنها وتسمع ضخ الـدم؟ تحبهـا وتحضـنها وتحاول أن تحتويها وتلتصق بجسمها وتحاول وتحـاول أن تبذل كل الممكن وتجري وراء النغمة الكثيفة لكي تمسـكها بجسمك وتلف يديك حولها وتأخذها في جسمك بين يديك في حضنك؟

أنا فعلت

كل الممكن والمتاح والعاقل والناضج والعميق وكـل غير الممكن وغير المتاح والمجنون، فعلته كله، أسقطت كل الحدود والقوانين، وعملت كل العيب والحرام والممنوع. لم يهمني شيء كنت كاسحة. أريد أن أقول كلمة أخرى: كنـت

فاجرة. فاجرة، وقعت وشلت ومسحت وولغت وانتزعت كله، لم أبق إلا لحمي الإنساني الداخلي البدائي.

عرفت أن الصحراء المسترسلة الرائعة بلا أي حاجز في سينا، ومزارع العنب والنخيل إلى مدى الأفق، والرمـل المتحدر إلى البحر في الراس السودا، كلها موجـودة فـي قلبي. في كوني الداخلي. وعرفت أنني لست قطعة بلاستيك. اقتربت بل وتوحدت مع الكون والمجرات والشموس وحكاية الإنسان ومعبد الكرنك وريكويم موزار، بلا خوف ولا حزن.

كنت ألمس الأشياء من أول وجديد بـدون إحسـاس الهول.

صدقني لو قلت لك بكل أمانة إنني كنت أسكر بلا سكر إلى حد أنني لم أكن أستطيع أن أقف على رجلي.

أسقطت كل الأقنعة والدروع، رسمت "ماجريت"، رحت في كل تصوفات باخ، رقصت ولعبت ودخلت بجسدي في كل طرقات الروح".

قلت: نعم، بجسمك في كل طرقات الروح.

قالت: أصدق. أعرف، أنا، بصميمي.

قلت: أما إنكار الجسد فهو تمجيده، مقلوباً على وجهه. النكران الحار هو أوجع الإيمان، كما تعرفين، أو لا تعرفين.

قلت: البؤس الجنسي لا أعرفه، على معرفتي بمضض الآلام الجنسية، والنشوة المحلقة الغائرة في صميم الجسد.

كانت فيها عفوية بنات البلاد الجسدية، تدفقهن العضوي الفياض غير المحجوز، ليس فيه ورع ولا تحجر، ولا تحرج حتى.

هل أنا أقدس الجسد النسوي، جسدها، جسد كل منهن، الرامات التسع، بلا مبرر؟

أم إن في هذا التقديس امتهاناً مضمراً خفياً لكل منهن، وتكريساً لمبدأ جسمي أنا؟ هل في هـذا انعكـاس لجسـمي – وما وراءه – فيها، فيهن، في كل منهن؟

"دخلت بجسمي في كل طرق الـروح"، لمجـرد هـذا المعنى – وهذه الصياغة – أقبلك يـا نـايرة قبلـة الحـب والامتنان.

ومع ذلك فأنت – على صعيد آخر – غريبـة غربـة كاملة. هذا أعرفه.

ولصيقة بي، مألوفة وحميمية وداخلية عندي، كـأنني أقرأ منك جانباً من جسمي نفسه، جسمي الذي يطرق متاهات الروح.

جانباً هل أنا الذي غرسته فيها، أم هي التـي زرعتـه في؟

"دائماً كنت أقول له: أنا عطشانة لك. عندما أشرب لا أرتوي. عندما أرتوي أعود ظمآنة من جديد.

معه كنت دائماً مرتبكة، مضطربة، لا أعـرف مـاذا أريـــــــــــــــــــــــــــــــــــــد.

لا شيء. كل شيء. مثل المركب في بحر، بلا مجداف، بـلا شــــــــــــــــــــــــــــــــــــراع.

أو حافية على رمل لا حدود له ولا أفق في نهايته. أصـابع قدمي تغوص في الرمل الناعم.

كنت أقول له نصف ضـاحكة نصـف جـادة: أنـت جاموستي!

كنت أقول له: تعال نذهب للناحية الأخـرى. للاتجـاه الآخر. للضفة الأخرى.

باختصار، أحببت. أكلت من طـين الحيـاة. روحـي نورت.

وإلى حد الهوس رأيت. ولأنني عرفت عملـت، دون تردد.

أحس أن كل الأشياء صاحية، تكلمني.

في معظم الأحيان أحس، أكثر مما أفكر.

لم أتصور قط أنه في لحظة مـا سـوف تحاصـرني هزيمة الآخرين وتضغط علي هذا الضغط الهائل، وتصـبح الهزيمة هي القانون. هي التي في الشمس وأنا التـي فـي الظل، هي التي تفعل وأنـا المنتظـرة، منتظـرة الصـدقة، منتظرة رحمة ما.

في لحظة مجنونة نظرت في يدي. وجدتهما خاويتين. لا أمسك شيئاً. وبعد أن أمتلك كل الأدوات كانـت الحكايـة انتهت. بعد أن عرفت سر اللغة كان الموضوع الذي سأتكلم فيه مات.

الغيط اختفى، البحر نشف والصحراء انطوت.

ليس هناك ما أفعل أحس أن الحياة صـغرت وأننـي ممكن أن أراها من خرم باب. ليس ثم موضوع، لـيس ثـم حدث، ليس ثم شيء كبير.

سافرت، ولكن – على الأقل بالنسبة لـي – الخـارج جحيم، خواء، بلا روح، فقد كل شيء. أنا لا أريد أن أتفرج على شيء. أريد أن أعيش. أعيش.

أحس نفسي خاوية. أحس خارجي خاوياً.

"أين الانتصارات؟ أين؟

حتى أصحابي، إما في الحشـيش، أو عنـد أطبـاء نفسيين، أو تحجبن أو ترهبن، أو يجـرون وراء فلـوس، أجدهم إما محبطين، ساكتين، أو راجعين لما رفضوه طـول الوقت.

أحس شيئاً من الهزيمة دخل في نسيج الحياة. هنـاك شيء لا طعم له، طول الوقت أحسه، مع النـاس، ومـنهم، شيء قد فسد، مثل الأكل الحامض، أحس نفسي لا أكبر، ولا أنمو، لا أعمق. وبدلاً من أن أتكلم مع النـاس، والأشـياء، أجد نفسي ساكتة طول الوقت، ساكتة معاقة منهم معاقة بهم

معاقة فيهم. ليس هناك انصهار حقيقي ليس هنـاك قضـية ليس هناك تفاعل.

من زمان، عندما كنت أقوم بعمل مـا كنـت أحـس بالسياق.

كان هناك تناغم وتصاعد ومحصلة.

الآن أحس أنني أظل ألف مثـل الـدينامو، ولكـن ع الفاضي.

أقول: تحملي. نحن في الحياة يجب أن نتحمل. ولكني أعيش أشياء قميئة مبتورة وناقصة. وفي الآخر أرجع، لأن هذا كله لا يحتمل".

عندما جاءت تزورني لأول مرة دهشت، لأنني رأيت فيها مزيجاً غريباً من رامة المتفجرة المتمـردة المزدهـرة بالجنس والشبق لماحة الذكاء وحاضرة الذهن، ومن سـماح أنور الغلامية المشاكسة ببرودها الخام وصوتها الأبح قلـيلاً – على طلاوته – ومن أختي الصغيرة من سنوات، عنـدما كانت في السابعة أو الثامنة، تزورني في معتقل "أبـو قيـر" تسير إلي بخطوة صغيرة واثقة وجريئـة وكاملـة البـراءة والشجاعة.

أردت أن أضمها إلي بمحبة صداقة فورية، وأن أحس على صدري بنهديها الصـغيرين، كأنهـا بكـر لنظافتهـا الجسدانية الداخلية وتمام طهارتها.

لذلك لم أفاجأ حقاً حينما تلقيت منهـا الرسـالة التـي تقرءونها الآن معي، بالنص تقريباً.

"أحس شيئاً كابوسياً يهدف إلى تحويل النـاس إلـى أجسام بلا روح، مثل الدجاج الآلي فـي مـزارع الـدواجن والجمعيات الاستهلاكية، مجاميع هائلة تخرج للحيـاة فـي المحاضن المبرمجة تؤدي وظيفة مرسومة من الأول للآخر، ينتهي البرنامج فينتهون، لا صراع، لا اتصال. لا حـوار، لا شيء إلا الكابوس.

أنا أحب الحياة. أجد فيها متعة أفرح بهـا. أرقـص فرحاً بها. لذلك كنت قد عديت في الحديد، عشت، أكتشفت، عرفت. لكن هذا الذي يسلبني فرحتـي وإصـراري الآن لا أعرف أن أتجاوزه. هذا الذي يحرمني من الرقص – معنـى الحياة عندي – يحاصرني، هذا الكابوس، ويعزلني. طـول الوقت أحس شيئاً لا طعم له. ولا أستطيع أن ألعـب اللعبـة

الرديئة بالقيم، وبنفسي، وبإيماني بفرحـي وإقبـالي علـى الحياة. بالرقص. لا أستطيع أن أهدر الحقيقي في.

تعبت حتى عرفت. تعبت تعباً حقيقياً حتى عرفت ماذا يعني الحب، ماذا يعني ربنا، ماذا تعني الموسيقى، وعلـى الأخص ماذا يعني الرقص حقاً. ماذا يعني البحـر، ومـاذا يعني الجسم.

لا أستطيع أن أتجاذب أطراف الكلام اليومي الصغير. لا أستطيع العبث بما هو جدي.

ولا أستطيع أن أظل هكذا طويلاً ولا أرى مخرجاً."

"نايرة"

ماذا أقول يا نايرة؟ هل تستنجدين بمن يغرق؟

أم فقط تطلقين صرخة لا تملكين لها حبساً؟

أنا أيضاً لا أستطيع أن أقول لك، مـثلاً: "لا تراعـي، الزمن كفيل بأن يجد المخرج والنجاة." هذا كلام صغير.

أما أنا فإن خرسي مطبق.

لا أستطيع – مهما تكلمت – أن أقول شيئاً.

ثم إن هذه كلها ليست قصتي، ليسـت مـن صـنعي. لا يد لي فيها إلا أنني تلقيتها.

أم أنني بصوتك أنتِ أقول؟

النزوة الثالثة عشر

الولد والعمارة

سحب بيضاء ذيول مفرودة لطاووس أبيض في السماء.

سماء الروح التي لا تريد أن تنطفئ.

تتلقى هذه السحب، دون توقف، طعنات ثابتة من الأعمدة الخرسانية التي تنتهي بشعث من الحديد المسلح متلوياً ومعوجاً، ضارباً في الزرقة البحرية الساجية لهذه السماء الإسكندرانية التي لا مثيل لها.

ظلت هذه العمارة سنوات لم يكتمل بناؤها، أوشك صدأ البحر أن يأكل قضبان الحديد الناتئة من أعمدتها وعوارضها الأسمنتية الضخمة المتقاطعة التي تذهب إلى بعيد في غور ظلمات العمارة الداخلية.

نشط العمل الآن فيها، فجأة قلت لنفسي، وأنا أمر على الكورنيش، عند جليم، وهواء البحر القوي يصطدم بوجهي. ضممت ياقة معطفي الواقي من المطر حول وجهي متلمساً

دفء الفرو الداخلي، والرذاذ يصعد إلي من خبط الموج على الصخر وكتل الحجر الرازحة مغطاة بالطحلب المبلول داكن الخضرة، تحت.

كان الصبح العالي مختبئاً وراء السـحاب الأبـيض، مازلت أحس أنفاسه، والشمس تتخايـل تختـرق الحجـاب ثم تتوارى. أحس دفق دماء الشتاء الصاحية في جسمي سعيداً سعادة فيزيقية بحتة، بمجرد المشي السريع على الكـورنيش في مواجهة الهواء، وتشوقاً للقاء أوديت في سكاربيه.

مازلت أرى الرجال يقيمون السقالات الخشـبية علـى واجهة العمارة، يربطونها بالحبال الغليظة والكلابات الحديدية الصدئة على شكل حرف "U" ذات الزنبرك القاضم عصـي المرونة الذي يحكُم تحرك الضلع المتنقل من الكلابة.

وعلى الرصيف شكاير الأسمنت وكومة عاليـة مـن الرمل وكومة أخرى من الزلط. الرجال يعجنون الأسـمنت بنشاط وسرعة ويخلطونه بمقادير الرمل والـزلط المطلوبـة ويصبون عليه الماء بقدر محسوب. الآن فقط أتـذكر هـذه الصنعة الدءوب البارعـة كلهـا قبـل أن تختفـي بظهـور الخلاطات الآلية الضخمة.

فريق من الرجال آووا إلى الدور السـفلي المفتـوح. العمارة كلها عوارض وأعمدة متقاطعة ومتشابكة ومفتوحـة، هيكل مفرغ.

أو قدوا ناراً من جذاذات الخشب المهمل على الأرض التي مازالت ترابية، كما يوقدونها تحت كل هياكل العمارات والأبراج الشاهقة التي يبنونها كل يوم ولا يسكنونها، أقـاموا الكانون المرتجل التقليدي من طوبتين وضعوا عليهما الإبريق الصاج المهتز الذي ينفث الآن بخاراً خفيفاً ويهتـز بغليـان الشاي في بطنه المدور المليء.

قلت: ممن يلتمسون الدفء، من البـرد أم مـن ظلـم ليس له كلمات؟

قلت: بم يحتمون؟ بالزمالة العارضـة التـي سـوف تنقضي وشيكاً لكي تلتئم من جديد؟ أم بمجرد هرابيد الهـدوم وخيش الشوالات المقطوع والصديريات البلدي المهترئة التي أكلها القدم؟

بأي حق أقول لهم أبي، أخي؟

وأنا مع أوديت على حافة البحر أترشف كأس البوردو الأبيض، النبيذ مصفر، شاحب الزعفرانية في بياضه، أعرف

الآن في فمي طعمه الحريف ناعم الحـدة، وأتلقـى طعنـة نظرتها، مكبوحة الغواية، تقول بهاتين العينـين المصـوبتين إلي، مالا تريد النطق به.

أحاول أن أنفي مشهدهم، بردانين تحت هيكل العمـارة الخاوي، ولا أستطيع. أقول لنفسي: لا تنكر علينـا المتعـة الحسية الصرف، في وهج زمالة غير ثابتـة. هـل نعـرف – هل يعرفون – إلا متعات من هذا النوع؟ ترشف الشـاي الثقيل اللاسع السخونة الغارق في السكر، الشفط بين الشفتين الجافتين القشفتين، سحب السائل الكثيـف، بصـوت عـالٍ ممدود، وفرد الظهر المكدود، ومد الساقين النحيلتين حمالتي الحمول، وطقطقة الكتفين المكدومتين مـن عضـة الطـوب ورزوح قصعة الأسمنت الطري التي تبدو صـغيرة الحجـم ولكني كم أحس أنها ثقيلة على الكتفين، ثقيلة.

عندما رجعت وجدت لمة الناس المعتادة عندما يحدث شيء، تحت هيكل العمارة المضروب بالفراغ من كل جانب. وعندما اقتربت وجدتهم كما توقعت جماعة البوابين النـوبيين بعممهم وجلاليبهم ناصعة البيـاض، والمكـوجي – محنـي الظهر دائماً، منحوف عظام الوجه، كأن بخار الكي وهبـوة

المكواة المحمية تتطاير حول وجهه دون أن تنـزاح أبـداً – وصبي البقال قصير القامة المدكوك الذي مـازال متشـوفاً متشوقاً لما في جعبة الحياة، هل يقضي عليه القهر؟ أو يفـتح عليه الرحمن؟ أو يملأ كرشاً بطيناً مستقبلاً بأكـل السـحت؟ والباعة الجوالون وضعوا مشنات البلح الزغلول والأمهـات والمنجة على الرصيف أو احتفظوا بها في توازنها الحـرج على رءوسهم المرفوعة شامخة الرفعة.

لكن ما شد نظري هو تلك المرأة الأم التي حاولت أن أتذ١كر أين رأيتها من قبل. حتى عرفت.

كنت منذ أسبوع، أسبوعين يمكن، في قسم باب شرقي أستخرج ورقة الفيش والتشبيه لتقديمها للنقابة.

ولما خرجت من مكتب الضابط النـوبتجي أحسسـت بخجل قليل من نفسي. البيه الصغير له معاملة خاصة بينمـا طابور البطاقات الشخصية يمتد ويتلوى أمام الشباك بقضبانه وفتحته الصغيرة وفوقه لافتة ورق أوشكت أن تبلـى، بخـط رقعة: المملكة المصرية، مصلحة العمل.

ووراء القضـبان يجلـس الشـاويش وراء ترابيـزة موضوعة تحت الشباك مباشرة مكومة بالاستمارات والطلبات

على عرضحال دمغة والبطاقات الجديدة، عرقـان، مكـدود ضيق الخلق، عليه أن يتعامل مع طابور صـاخب بـالكلام والاستعجال والتزاحم والتدافع الخفـي تحـت سـتار حلـو المجاملات. كان القانون رقم ١٢٣ لسنة ١٩٤٤ قـد صـدر وابتدأ تطبيقه منذ قليل، على الكافة أن يسـتخرجوا بطاقـات شخصية: الصعايدة الخالدين، عمال البناء الذين كانوا عندئـذ أغلاب من الغلاب، لم يكن لهم وصف إلا أنهم بيشـتغلوا فـي الفاعل، حفاة أقدامهم العارية سوداء تقريباً مشققة جافية الجلد على أسفلت القسم، والبياعين وأقفـاص الجريـد والمشـنات المرصوصة بالفاكهة والخضار، موضـوعة علـى الأرض على جنب – بعد إذن الشاويش الواقف على الطابور ومعـه عصا خيزران قصيرة والذي تكرم بالإذن، بعد الشخط والنتر حسب الأصول المرعية، وبعد الحتة بنص فرنك التي دسـت في اليد الغليظة، والصنايعية بعضـهم بالعفريتـة المزيتـة وبعضهم بجاكتات كاكي من "الأورنس" الإنجليزي، والكـاب العسكري الطري المطبق دون شارات – هل قايضه أسـير طلياني مـن وراء سـور المعتقـل بزجاجـة سـباتس؟ - والأفندية بالبدل الكحيانة والطرابيش التعبانة – لـيس لهـم

واسطة كما كان عندي من الأستاذ باسيلي المحامي بالنقض، إلا واسطة ربنا وحده.

ولكن ما بدهني هو هذه المرأة في الطابور – لم تكن موضة الرجال في صف والنساء في صف منفصل قد اخترعت بعد، وكان كل واحد ودوره، أو شطارته. كانت تدافع وتزاحم كالرجال، جلابيتها السوداء تشي بأصلها، سمراء محروقة صعيدية الملامح وصلبة قائمة العود، يبدو أنها لن تنكسر. وفي يدها – التي أدهشني صغرها ورقتها ورهافة أصابعها على ما يبدو فيها من جفاف واضح – ولد. قلت إنه، من جسمه، في نحو العاشرة مثلاً وإن كان وجهه – الذي يطابق وجه أمه تقريباً بدكنته وصفاء خطوط عظامه تحت البشرة التي مازالت نضرة ترف بماء الصبا – يبدو أكبر عمراً. وفي عينيه نظرة اقتحام، وشجاعة، وصبر.

ورأيت فيه الرجل الصغير- ككل الصعايدة – مشدود العود، هيكل كتفيه مستقيم الخطوط كعوارض خشبية، هندسية الاستقامة، وجلابيته بالتفصيلة الصعيدي التي أعرفها، نازلة، تتسع عند نهاية الكمين، وفتحة العنق واسعة الاستدارة،

يبدو منها القفص الصدري متيناً مضلعاً تحـت الصـديري القديم المهدل قليلاً، قلت كأنه ورثه عن أبيه.

ظننت أنني نسيت هذا الطابور. الآن أراه مرة أخرى، وأخرى.

وثب إلي مشهده وأنا أسمع المرأة تولـول، دون ورع، بصوت ثاقب مازال يقرع قلبي وأرتجف له:

- ولدي.! ولدي! يا بوي! يا دلي من بعدك يا ولـدي! ومن بعد أبوك. أنت وين يا ولدي!

عادت إلي صرخة أبي الملتاعة ع الصبح فـي شـقة غيط العنب، استيقظت من نومي عليها: ولدي ولدي! رحـت مني يا أمين!

كان قدجاءه خبر أخي الكبير الذي قتل في حادث قطار في السنبلاوين.

انتزعت نفسي من الصرخة، وسألت على اسـتحياء، وخرج من اللمة أكثر من واحد يقول لي الحكاية.

كان الولد يصعد يحمل رصة الطوب، يرتقي السقالات المنصوبة على واجهة العمارة. دخل فـي الـدور التاسـع. واختفى.

لم يعثر له علـى أثـر، لا علـى الأرض ولا علـى عوارض الأسمنت والخشب، في كل الأدوار السـتة عشـر، ولا على السقالات، ولا في أي مكان. لم يهرب، لم يره أحد ينزل من الدور التاسع، بل شهدوا بأنه دخل هنـاك، ولـيس هناك مخرج. لم يسقط، ليست هناك جثة، ليس هناك جريح، وليس هناك أحد.

ابتلعته العمارة النهمة، كأنما كانـت تطلـب ضـحية، أو قرباناً. كأنها لم تكن تريد أن تُبنَى دون أن تأكل فريستها. قلت هذا غير صحيح. قلت هذا غير معقول.

سألت: من إمتي الكلام ده؟ دانا لسة فايت..

قيل لي: من قيمة ساعة زمان كده.

قيل لم يظهر له أثر حتى الآن.

قيل والعمارة الآن مازالت شاهقة، شـامخة الصـلف، أمام باسترودیس على البحر، في جليم.

فهل شبعتْ، ورضيت؟

أم هي مازالت جائعة تنتظر الفرائس؟

مازلت أسمع الصرخة حتى الآن: ولدي..! ولدي..!

وفـي الأخبـار بتـاريخ ٥ يوليـو ١٩٨٧ – بعد أربعين سنة – أن قتل ميكـانيكي بالمطريـة صـبيه الصغير وعمره ١٦ سنة. لم ينفذ الصبي تعليمات الأسـطى فضربه بسوسته غليظة فوق رأسه فأرداه قتيلاً فـي الحـال. تم القبض عليه واعترف ووجهت له النيابة تهمـة ضـرب أفضى إلى موت وقررت حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق. وكان العقيد فرج زين العابدين مأمور قسم المطرية قد تلقـى بلاغاً بوفاة طفل صغير بورشة ميكانيكـا بشـارع نجيـب معوض انتقل إلى مكان البلاغ المقدم محسن مـراد وكيـل مباحث فرقة الشرق. تبين أن القتيل صبي عمـره ١٦ سـنة يدعى حسني رجب أحمد يعمل بالورشة.

يا ولداه..!

قلت: يووه..! من هذا كثير، في هذه الأيام.

وكانت خرفان العيد في الشارع بيض الفـراء عليهـا ختم الصحة البيطرية بالأحمر الـذي يتقطـع بـين خصـل الصوف الطويلة مشعثة الأطراف، جسـومها قريبـة مـن الأرض، ممتلئة، ملظلظة، تترجرج، والألية بطياتهـا الثقيلـة تهتز وهي تمأمئ بصوت سمعت فيه نغمة شـبع واكتفـاء،

ووراءها حارس – أو راعٍ – صبي يسير على الكـورنيش حافياً كأن قدميه تفاجآن فـي كـل مـرة بيبوسـة الأرض وصلابتها، وكأنما تنتظران أن تغوص الرمال قلـيلاً تحـت وطء خطوهما، ولا رمال هناك، جلابيته الزرقاء قصيرة من قطعة واحدة خشنة مربوطة بحبـل عنـد وسـطه وتحتهـا صديرية سوداء ولكن كالحة السـواد قليلـة الأزرار لـيس كالصديرية البلدي أو الصعيدي المليئة بـالأزرار المـدورة اللامعة، قلت لعله من عرب نواحي الدخيلـة، أو مـن بعـد العجمي، شكله صحراوي على كل حال. ومعه بنت صغيرة – في الرابعة أو الخامسة ربما، تثـب بخطـوات اللعـب، جلابيتها طويلة حمراء لميع، وفي يدها هي الأخرى عصـا قصيرة تساوق العصا الغليظـة التـي يمسـكها أخوهـا – لعله أخوها؟ لا يمكن أنه أبوها مثلاً؟

قلت: الضحايا.

قلت: الأعياد لا تقوم إلا بالضحايا.

قلت: لا الضحية في العيد رمز وليست واقعة.

أما الرموز عندنا فلا بد أن تتجسد.

كتبت سهام ذهني في صحيفة، أو مجلة، لعلها "أكتوبر" بل أكاد أوقن بذلك من مجرد نوع الورق وبـنط الطباعـة، عثرت على صفحة منها مقطوعة لا أدري ما تاريخها، لكنها بلا شك في السبعينات أو أوائل الثمانينات من السياق، كأنـه نقش محفور، ومكتوب، لا يتغير:

"محمد محمود إسماعيل من الفيوم ومسافر إلى الأردن: أنا من صغري شغال في طائفة المعمار. لا مؤاخـذة نشـيل بالقصعة ونطلع السقالة نصب السقف مع المقاول. يوم نشتغل ويوم لأ. لا رحنا هنا ولا هنا. الحكاية مش حكاية تليفزيـون أو مسجل. هو الواحد هيدور ع النزاهة ولا يدور على لقمـة العيش إن كان ع النزاهة آدي مصر حلـوة. الواحـد يقـدر يركب الأوتوبيس ويفضل رايح جاي طول النهار. إنما إحنـا بندور على لقمة العيش"... "باشتغل علـى دراعـي واللـي باعمل بيه باصرفه.. حبيت أني أسافر وربما يرزقنـي زي غيري"... "جاري كان تعبان زيـي وبعـدما سـافر رجـع استريح، أنا كمان عايز أستريح زيه وبعـدين إحنـا مـش رايحين نسرق، إحنا رايحين نشتغل وقاصدين الكريم".

وكان الطفل على حجرها هامداً، شبه ميت، شبه جثـة تنبض بحركات ضعيفة وكانت فسحة العيادة البلاط العـاري فــي راغــب باشــا مزدحمـــة بهــم، هــم أنفســهم – أنا منهم في النهاية أقول لنفسي – يحيطون بـي، هـؤلاء الصعايدة والصنايعية والبياعين والأفندية الغلابـة، المقاعـد الصلبة الخشنة مرصوصة داير ما يدور على حيطان العيادة، أنفاس المرض والملل والانتظار ثقيلة. وكانت بيضاء الوجه، فيها جمال، في عينيها حول خفيف، تلف جسـمها بـالملاس الدمنهوري الأسود المكشكش كثير الطيات، وكانـت تبـدو مرهقة، هلكانة. قام زوجها، طويـل القامـة، فـي جلابيـة صعيدي سابغة وثقيلة، نحيلاً وقادراً، ودخل إلى المطبخ حيث يجلس التمرجي على الباب، مستنداً إلى مائدة خشبية قديمـة عارية، عليها فقط دفتر يكتب فيه بالقلم الكوبيا جدول كشـف الأتعاب. سمعت وابور الجاز يهب، ويفح، ثم ينتظم وشيشه، وخرج الزوج وفي يده كوب الشاي الأسود الثقيل، قدمه لها. دون كلمة. وكانت جلابيته تبدو وكأنها على تمثال.

هل كان أحمد حمروش هو الذي فتح الأوبرا لأصحاب الجلاليب؟

في المبنى الخديوي العريق، جالسين بفخر واعتـزاز على المقاعد ذات القطيفة الحمراء الداكنـة، قـادمين مـن شوارع وحواري القاهرة التي كانت مظلمـة تقريبـاً تحـت غارات الطيارات الفرنسية والإنجليزية والإسرائيلية؟

سمعنا "إخناتون" يتحدث عـن سـلام عـادل مقاتـل – من أيامها – وينهزم، وموسيقى كامل صـليب: طرقـات طبلته الموقعة الموزونة بهندسة وحس حار تقرع الصـمت المهيب الباذخ، والقلب.

ورأينا "عفاريت الجبانة" و"موش حنسلم" بـديكوراتها الفاخرة الممزقة بجمال مقصود، مضاءة بتهاويـل مصـابيح الإخراج المرهف، والحوار شرائح ممزقة، أيضـاً. حماسـة الوطنية تفيض على شطوط الفن وتغرقها، ونرحـب بهـا، يسمعون "صوت مصر" سناء عالية الدرامية، فـي معتـرك الحب والحرب، أم هما معتركـان موحـدان تحـت الرايـة المرفرفة البراقة؟

لم يكن فيهم حفاة. وكانوا يعرفون ما الشـعر، علـى طريقتهم.

احترقت الأوبرا، أليس كذلك؟ واحترقت تلك الأيـام. كما كان لا بد أن يحدث. ليس قدراً. بل بفعل.

ذكرت مقاعد الأوبرا المخملية الحمراء الداكنة عنـدما ركبت الديزل التوربو الفرنسي الباذخ، من محطـة مصـر. ولكن الأوبرا لم يكن فيها هـذا الهـواء المكيـف المثلـوج الصناعي.

تباطأ القطار قليلاً بعد الكـوبري، وفوجئـت بمدينـة الصفيح الصغيرة الطارئة التي لم أكن أعرف لها وجوداً عند الحضرة، قبل السجن بقليل.

البيوت، الجحور، العشش المقامة من ألواح الصـفيح المتموج والمطروق، متعدد طبقات اللون بين الصدئ والكابي والمعدني اللامع الجارح، معلقة، مائلة عن جوانـب ربـوة الحضرة المرتفعة التي تحف بشريط السكة الحديد، بين أكوام الزبالة الجافة العتيقة، مسقوفة بجذوع شجر وعوارض خشب ولوحات صفيح أيضاً وعلب كرتون مقوى فردت وثبتت على الألواح الملصمة وخشب الأبلكاش المستنقذ من زبالة المدينة.

قلت: العمارة أكلت الولد، وهذه العشش البذيئـة فـي فقرها الموحش ما فرائسها؟

رأيت هوائيات التلفزيون تنشق من على بعض سقوف هذه العشش، والأولاد يتسلقون الربوة المتحدرة التي انتثرت عليها ولصقت بها مخلفات القمامة.

هل قلت إن الشعر احترق؟

تظل العنقاء تولد من جديد، عنيفة الجناحين، من الرماد.

كيف لي أن أقول ما أريد.

النزوة الرابعة عشرة

ستة خيول

كنت أسافر أحياناً من القاهرة للإسكندرية بالطائرة.

كانت أشواقي إليها لا تحتمل السفر بالديزل المجـري الجديد، مهما بدا من سرعته وكفاءته.

ومن مطار النزهة القديم كنت أهاتفها ونحـدد ميعـاد اللقاء، عادة بعد ساعة، عادة في "غزالة".

وكانت "غزالة" جنب سينما اسـتراند، أنيقـة وهادئـة وبها أرائك وثيرة ومريحة تدور حول جدرانها التي تسبح في ضوء غير مباشر آتٍ من كرانيش علوية في الحيطان مرهفة البناء. وكنا نقول إننا سوف نصنع في بيتنـا هـذا الضـوء الشاعري، وتلك الكرانيش، ولم نصنعه قـط، وأمـا ضـوء الشعر الداخلي – مرهفاً أو عاصفاً – فقد غمر بيتنا.

كانت هناك أيضاً موسيقى غيـر فجـة تنبعـث مـن سماعات مدورة كبيرة موزعة بحـذق ودون اقتحـام علـى الأركان.

أي باختصار كانت مكاناً جميلاً للقاء محبـين، علـى الرغم من أنهـا قـد تبـدو لـك الآن – وعندئـذ – كمـا لو كانت مأخوذة من إحدى قصص محمود كامـل المحـامي الرومانسية جداً من الثلاثينات. لكن "غزالة" بالطبع لم تكـن مجرد أكليشيه.

قلت مرة أخرى وأخرى، بلا انتهاء:

- مهما كانت الكلمات، قادرة أو قاصرة على السواء، فما أبعدها عن الخبرة الحية وما أكثر ما تحمل الكلمات مـن إيحاءات ودلالات وأعباء عاطفية وتاريخية وفكرية لا وجود لها حقاً في تلك الخبرة المعاشة مباشرة دون وسيط.

دعنا الآن من النظر – ولو خطفـاً – إلـى مـا وراء الكتابة.

كنت عندما أصل بالتاكسي إلى بيتنا في شارع الباشـا في كليوباترا الحمامات، أغير البدلة، وأُعنَى بربط الكرافتة – أيامها وفي الشتاء خاصة كنت أُعنَى بارتداء الكرافتة: محب محمول على أجنحة أيام الخطوبة.

أجنحة الطائر الصبور الرءوم لم تسقطني قط.

أنتظر وصولها في محطة الرمل التي يحف بها النخل السلطاني العالي من الجانبين، أترقب وصولها علـى خـط باكوس أو سيدي جابر الجامع، ونزولها من التـرام الأزرق الذي يأتي، كفئاً، وفياً، شديد النظافة، ودقيق المواعيد.

يثب قلبي – كل مرة، كل مرة يا ربي! – عندما ألمح قامتها الرشيقة الدقيقة. الوجـه المضـيء الممتلـئ قلـيلاً والمشرق بابتسامة صافية تكاد تكون طفلية العذوبة، والخصر الرقيق الرفيع الذي تكاد أصابع يدي المدورتين تطوقانه مـن فرط رهافته وتهضمه.

قالت لي إن السرتيت الذي يحيط برأسـها يمكـن أن يدور حول وسطها.

نصعد السلالم القليلة إلى "غزالـة"، وتتمـاس أيـدينا – كأنما برغمنا، كأنما بقوة لا نسائلها ولا غلاب لها – ونحن نغوص على قطيفة الأريكة البنية ناعمة الـوبرة. وعيوننـا متشابكة، ليس بمقدورها أن تنفصل، بنظرة عميقـة كأنمـا تذهب بعيداً إلى أغوار ليست مسبورة في الروح.

كنـا – حتـى فـي الشـتاء – نبـدأ بـأن نطلـب "تروا بيتي كوشون" (يعني ثلاثة خنازير صـغيرة) ويـأتي

الجيلاتي المشكل ثلاث قطع مستديرة متجـاورة: شـيكولاتة وكريمة وفسدق، في كأس فضية مصقولة لها ساق مشـغولة منمنمة.

وبعد المتعة بها – وبأحدنا الآخر – وبالحـديث عـن مستقبل غامض المعالم يشع بالشغف والتمني، نثني – دائمـاً أو غالباً، حتى في الصيف، بكأس مـن الكونيـاك، أوتـار أو كورفوازييه – يصعد بالدم والأحلام والانتشاء إلى الرأس.

ثم نذهب بعد ذلك في العادة إلى سينما أمير أو متـرو أو رويال، القاعة في كل الحالات فخمة تلك الفخامة المبتذلة المنمطة – تبدو وثيرة وباذخة وفريدة مقارنـة بمـا يحـدث الآن– الأضواء الناعمـة المحكومـة، الموسـيقى المعنـي باختيارها، اللغط البهيج الأنيس مـن متفـرجين متشـوفين – دون لهفة ودون لهوجة – لمتعة الفرجـة، وقـد أخـذوا زخرفهم وأزينوا، لبسوا الآنق الذي على الحبل، نفث العطور الخافت غير الجارح يهب مع ضحكات خافتة قصيرة، حتـى تطفأ الأنوار.

تمتد يدي لتمسك بيدها الناعمة المطواع، أضعها على حجري، يمتعني الآن مجرد مسها واستجابتها.

قد تكون "غزالة" قد ذهبت، وكل ذلك، لكنها كلها الآن حية قوية الحضور.

مازلنا نستطعم لذاذة الجيلاتي - والأحلام، تصور! - والكونياك، ومازلـت أشـعر بملمـس اليـدين النـاعمتين الصغيرتين عصفورتين مرتجفتين مسـتكنتين فـي يـدي، أو متكشفتين على استحياء وتورع ومغامرة معاً.

عندئذ تتبرر ليالي الشتاء التي كم ضربت فيها علـى طريق البحر، أمشي على حافة الأبد، بـين أنـوار المدينـة المتراجعة، ولمع الزبد المتطاير في الزرقة الداكنة.

عندئذ يصبح معنى لضربات الموج التي تثب من فوق سور الكورنيش، تطس أحجار الطريق البيضاء، وتبلل الوجه المكبوح، تبلل الوجد المكبوح.

عندئذ تجد الأشواق موضوعها الـذي لا تنـي تجـده وتفقده وتجده، باستمرار.

والجرح، بشكل مستحيل، كأنه يصبح بدء ابتسامة.

تتبدد أكوام السماء الغائمة، الظلال الراحلـة تتشـتت بطعنة الفرح. رياح الاقتضاء تحمل صدى المدينة والضحك.

وقدة الشمس البهيجة تسطع بين جنبي، عطر العود القماري، تسقط أسوار المدينة صخور السماء.

الصحراء التي لا تنتهي ليست إلا ركناً من امتـدادات روحي الشاسعة.

أنت مدينتي.

كثيراً ما كان يدخل "غزالة" رجل غريب، يشرب كأساً على منصة البار الخالية معظم الوقت، قبل الساعة التاسـعة – وينزل يتأود في مشيته، في بنطلون محـزق –خـالص – وجاكتة مختصرة – خالص. يتلفت حواليـه بحركـات دلال تكاد تكون غنجة، ويتكلم بصوت فيه غنة خفيفة وهو يشـير بأصابعه الطويلة إشارات كلاسيكية في رقتهـا وإيماءاتهـا. وكان واضحاً أنه يأتي مباشرة من الكوافير الذي مارس على وجهه فنون الصقل والتنعيم، بالموسـى والفتلـة ومختلـف الكريمات.

وكانت تنظر إليه باستغراب قليل، وأحسست أنها لـم تفهم شيئاً كثيراً حينما حاولت أن أشـرح لهـا، بقـدر مـن التهذيب ضروري، وقدر من الوضـوح ضـروري أيضـاً. ولعلها لم تعرف تفاصيل أكثر من هذه الأمور إلا بعد سنوات

طويلة، من صديقة لها كانت تبدو بمظهر المحنكـة العارفـة بالخفايا وهي بريئة وساذجة حتى بعـد أن أصـبحت جـدة. وجاءت تروي لي بخجل ودهشة حقيقية توشك أن تكون عدم تصديق، وبعبارات علمية تقريباً مأخوذة من الكتـب، كيـف يصنع فعل الحب هكذا.

وكان هذا الرجل عندما تضيق به الأحوال فيما يبـدو ينزل درجة أو درجات في ساحة صيده. وكنـت أراه فـي "كِنْت بار" في شارع النبي دانيال، الحانة الدفيئة المكتظة التي تخلفت عن عصر العساكر الإنجليز – والملايطة والأسترال والأفريكاندر والفرنسيين الأحرار من أصـحاب ديجـول – ولعلها عملت خاصة لهم في آخر الثلاثينات – لست أدري – فقد كانت تشغل ساحة رصيف منفرجة داخلة من الشارع بين عمارتين، قبل أن تصل إلى شارع سعد زغلول. أقيمت مـن جدران من ألواح خشـبية محكمـة، متلاصـقة، مدهونـة بالأخضر الداكن زادت الأيام وميـاه الأمطـار، الآن، مـن دكنته، في مواقع، وتقشر طلاؤها عن الخام الكـابي خشـن الصفرة ضارباً إلى الغبرة في مواقع أخرى.

كنت ألتقي بأصحابي المدرسين عند خـروجهم مـن المرقسية الثانوية، فيهم من وصل فيما بعد إلـى الـدكتوراه والبعثة ورئاسة أقسام الفلسفة أو الإنجليزي ووكالـة كليـات الآداب، وكانت كأس النبيذ الأحمر – أو الأبيض المـثلج – والمزة التي هي بمثابة عشاء تقريباً: أطباق فخـار صـغيرة ولكن عميقة جليلة المحتوى، الكمونية، والكرشة شرائح دقيقة بالصلصة، والبساريا المقلية تقرقع في الفـم هشـة وسـهلة المكسر، وأم الخلول المفتوحة في صدفاتها المستطيلة مستقرة في مائها المتبل بالملح والخل وبهـارات أخـرى، وغيرهـا وغيرها، كلها بعشرة صاغ للواحد ونص فرنك بقشيش يفعل المعجزات بطبيعة الحال، ندسه في ود – كل على حـدة إذا أمكن، أو جماعياً في الغالب – في يـد فانـديلي الجرسـون الجريجي اللابس الرجنجـوت الأسـود والقفـاز الأبـيض – طهراني النظافة – وهو متخشب الظهر، مبتسم لنا ابتسامة بروتوكولية ثابتـة، يتسـلل إليهـا – ربمـا – دفء لعلـه مخصوص بنا، وإن كان مدفوع الثمن.

لم أذهب بها قط إلى "كنت بار" على أنني حكيت عنه كثيراً، فلعله كان صاخباً ورثاً قليلاً مهما كانت كرامة خدمته ولذاذة مزته.

كنت ألتقي فيه بعبد القادر نصر ا صديقي الذي أحبه كثيراً وكان قد عاش في قطر سنوات طويلة ولما عاد هو الذي ذكرني بـ "كنت بار"، وأخيه عبد الرءوف أحياناً، وفتوح القفاص، وسليم الأسيوطي ابن الشيخ البروتستنتي وأستاذ الفلسفة المتفرغ الآن، دقيق الذهن فخوراً برجعية مبررة عقلياً تبريراً صارماً، وعبد الحميد يسري، وأحمد صبري الرسام- مات أخيراً هادئاً نائماً في بيته بالفيوم أسابيع قليلة بعد أن رأيته على أثر انقطاع دام سنوات – ووديع كيرلس، وإسماعيل البكري الذي حكى لي حكاية غريبة تظل عندي – على شكلٍ أو آخر – مرتبطة بحكاية "كنت بار".

حكى لي صديقي إسماعيل البكري أنه عندما كان صبياً – وكان أبوه عندئذ حكمدار بوليس السكة الحديد في المملكة المصرية بحالها، كانوا مسافرين إلى طنطا، مرة، في موسم السيد البدوي.

فلما دخل الكمسـاري الـديوان المخصـص لسـعادة الحكمدار، نهض الرجل المهيب، وأدى التحيـة العسـكرية – بكل دقتها تقريباً- للكمساري، وأمر الولد أن يقبل يد عمه سكله: حب على إيد عمك سكله يا واد، حب..!

وصدع إسماعيل الصبي بالأمر طبعاً، وإن كان لا يفهم شيئاً. كيف يحـب علـى يـد "عمـه" الكمسـاري، وأبـوه – الحكمدار – كيف يؤدي له هذه التحية؟ لم يجـرؤ علـى السؤال طبعاً، ولكن أباه – بعد أن عاد لمجلسه الـوثير فـي الديوان الدرجة الأولى المحلى بصور فوتوغرافية تقليديـة، بلون السيبيا، لمعبد الأقصر والأهرامات وأبيدوس والقنـاطر الخيرية، في براويز زجاجية معتنـي بهـا – حكـى لابنـه الحكاية.

قال إن عبد المسيح بيه سكله الكبير، عنـد الاحتفـال بتعميد ابنه البكر في كنيسة البطريركية القديمة في كلوت بيه – أجر قطارات السلطنة المصرية المتجهة إلى القاهرة مـن كل أنحاء القطر، من الساعة الثامنة صباحاً حتـى السـاعة الثامنة مساء، كلها، حتى يركبها المهنئون القادمون للاحتفال والتبريك والغدا، على حساب البيه.

قال له إن عبد المسيح بيه سكله كان يلعب بـالفلوس، وإنه في الزمن القديم أنقذ عائلة البكري من ضـيقة عـابرة، كانت ستنفرج على كل حال ولكنه بادر، دون سؤال من أحد، فأخرج من عبه كيس القطيفة الأحمر ودون أن يفك الدوبارة المبرومة التي تزره أو تحزمه، سلمه إلـى جـده إسـماعيل البكري الكبير، مثقلاً بالجنيهات الذهب البنتو، أمانة إلى حين ميسرة، دون ورقة، دون حساب. طبعاً رد إسـماعيل بيـه البكري الكبير هذه الأمانة بأحسن منها، وهبه فـدانين مـن أجود أطيان الغربية، هبة شرعية خالصة من كل شرط.

لكن عبد المسيح بيه سكله خسر كل شيء، في بورصة القطن.

"الإسكندرية في ٣ أغسطس ١٩٤٢.

"لماذا تأبى أن نلتقي أحراراً كبيري القلوب في أفـق الفكر الصامت؟

"ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الإنساني الذي أرتجف له؟

"ولم تجعل من إيمانك الإنساني درعاً لقلبك؟

"هناك مسئولية تحيا وحيداً معها فلا تجعلها تشـعرك بانفصالك ووحدتك.

"لأن من تراهم ينبذونكم، أنت تحيا لهم، فاجعل مـن آلامك عيداً لكل إنسان.

وهل يتردد الألم في آفاق كل نفس ما لم يكن إنسانياً؟

إنني أريد أن أكشف لكم جميعاً عن ذلك الجلال الـذي يتردد بين العدم واللا نهاية.

وأرغب – لو استطعت – أن أجعل من نفسي أرغفـة المسيح.

لنرتفع بإيماننا إذن فوق الغضب والشـهوة ولنشـبع فينا هذا النزوع الإنساني الحار كالصلاة الذي يـدفعنا إلـى وضع عدالة بعد الموت يطمئن إليها النزوع الفاني.

إنني أحدث فيك فضيلة الحرية التي حدثتك عنها.

ومن يدري؟ لعل الفناء كامن وراء كل عاطفة كليـة، ولعل الفناء هو الذي يدفعني إلى تلمس الجانب الخالد فـي كل إنسان.

أجل، كثيراً ما يكون الفناء لنا بصيرة.

أريد – بحبي – كل إنسان أن يكون كالمعبد نشعر أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها، وبنوع من الإلزام الخلقي."

"سامي"

أي سامي، ما أقربك إلي هل مازلت تحمل هذه الإرادة، هذه العقيدة، هذا السؤال؟

وهل مازلتُ أحملها؟

في ظهر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣ كان صوت جرس الكنيسة المرقسية جليل الوقع، بطيئاً في دقاته الجنائزية التي يأتي إيقاعها من بعيد، يضرب قلبي.

كانت العربة السوداء تقف أمام الباب في شارع ابن زهر، عليها تمثال الملائكة المذهبة الصغار مبسوطي الأجنحة، محنية رءوسها على التابوت المسجى، وأمامها الخيول الستة، مغماة، مغطاة بأوشحة داكنة الزرقة تنتهي بشراشيب ثقيلة، والحوذي قائد النقلة الأخيرة على مقعده العالي، في البدلة الردنجوت السوداء والقفاز الأبيض محكم النظافة.

وعندما أنزل الرجال التابوت المعمول من خشب الجوز والمصفح بنحاس مذهب، وصعدوا به السلالم الضيقة، ودخلوا به البيت، كانت خالتي حنونة تطلق صواتها الثاقب المدروس في الشقة كلها، ليست فيه لوعة وإنما خبرة موجعة.

انضمت إليها في إعلان الحزن فاجع الصوت حلقة النساء السوداوات.

لم أر وجه أبي في موته.

لم أستطع.

سارت العربة، بحركة وئيدة إلى شارع إيزيس وأمامها بساط الرحمة الأسود يمسك به الشمامسة وأراخنة الكنيسة، من الجانبين.

ووراء العربة كانوا يسيرون بتمهل، وكانت سيارات الأجرة، والملاكي القليلة، والحنطور تنساب بنعومة في زحام وسط البلد، تحمل المعلمين والتجار وكتبة الحسابات والعملاء الآتين من شارع أنسطاسي وكوم الناضورة والجمرك واللبان، بالعمائم والطرابيش والبدل والجلاليب والبلاطي،

المسابح في الأيـدي والمصـاحف الصـغيرة أو الصـلبان الصغيرة، لا فرق، في طوايا الجيوب، والقلوب.

ومازال الجرس المهيب يوقع علـى السـماء بـدقات متباعدة قليلاً، عميقة الصدى.

مر صبي صغير، حافي القدمين، جريـاً مـن أمـام الجنازة، وبصق.

ذكرني صديقي بدوي بأنني قلت لـه ذلـك المشـهد، بينما كنت أنا قد نسيته.

غيابة الدمع أم غيامات المرارة أنستني؟

ودع العربة ذات الخيول الستة.

كنت أنت وراءها في السيارة، تهزك الـدموع، بـين خاليك يونان وناثان، وصديق لهما، غريب، ما مكانه هنا؟

لا تستعد إيقاعها.

ولاتقل إن ذلك ذكرى قد عبرت.

بل استمع إلى دقات الجرس الكبير، بطيئة، ضـاربة، ما تزال ترن في جنبات سمائك.

ودع العربة ذات الخيول الستة.

فقدتها، فقدت من تحمله العربة، في رحلته الأخيرة.

وما تحمله.

ولا تستطيع أن تنسى الفقدان؟

لأنك – ربما – لن تمضي في عربة ذات خيول ستة.

أمواج الشمس الحارة طوفان البكاء غيابات السـحاب الأبيض.

إدوار الخراط

١٠ أبيب ١٧٠٨

١٧ يوليو ١٩٩٢

• للمؤلف

١- حيطان عالية، مجموعة قصص، على نفقة المؤلف، القاهرة ١٩٥٩ – دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠ طبعة ثانية.

٢- ساعات الكبرياء، مجموعة قصـص، دار الآداب، بيـروت ١٩٧٢ – دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

٣- رامة والتنين، رواية، طبعـة محـدودة، القـاهرة ١٩٧٩، المؤسسة العربية للدراسـات والنشـر، بيـروت ١٩٨٠ – دار الآداب ١٩٩٠.

٤- اختناقات العشق والصباح، قصـص، المسـتقبل العربـي، القاهرة ١٩٨٣، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

٥- الزمن الآخـر، روايـة، دار شـهدي، القـاهرة ١٩٨٥ – دار الآداب، بيروت، ١٩٩١.

٦- محطة السكة الحديد، رواية، مختارات فصـول، القـاهرة ١٩٨٥ – دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

٧- ترابها زعفران، نصوص اسكندرانية، المسـتقبل العربـي، القاهرة ١٩٨٦ – دار الآداب، بيروت، ١٩٩١.

٨- أضلاع الصحراء، رواية، الهيئة العامة للكتـاب، القـاهرة ١٩٨٧.

٩- يا بنات اسكندرية، رواية، دار الآداب، بيـروت ١٩٩٠ – دار إلياس العصرية، القاهرة ١٩٩١.

١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة، روايـة، دار الآداب، بيـروت ١٩٩٠ – الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢.

١١- مختارات من القصة القصيرة في السبعينات، مـع دراسـة، مطبوعات "القاهرة"، القاهرة ١٩٨٢.

١٢- أمواج الليالي، متتالية قصصـية، دار شـرقيات، القـاهرة ١٩٩١ – دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

١٣- حجارة بوبيللـو، روايـة، دار الآداب، بيـروت، ١٩٩٢. دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٢.

١٤- اختراقات الهوى والتهلكة، نـزوات روائيـة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

١٥- الحساسية الجديـدة، مقـالات فـي الظـاهرة القصصـية، دار الآداب، بيروت، صدرت عام ١٩٩٣.

١٦- عدلي رزق ا ، (مائيات ٨٦) دراسة، على نفقـة الفنـان، القاهرة ١٩٨٦.

١٧- مائيات صغيرة، دراسة، القاهرة، أغسطس ١٩٨٩.

١٨- أحمد مرسي، دراسة ومختارات شعرية، القاهرة ١٩٩٠.

١٩- الخطاب المفقود، أ. ل. كارجيالي، مسرحية، الدار المصرية للكتب، القاهرة ١٩٥٧.

٢٠- الحرب والسلام، ج١ و٢، ليو تولسـتوي، روايـة، الـدار المصرية للكتب، القاهرة ١٩٥٨ – الهيئة العامـة للكتـاب ١٩٩١ – ١٩٩٢.

٢١- الغجرية والفارس، قصـص رومانيـة، الشـركة العربيـة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٨.

٢٢- شهر العسل المر، قصص إيطالية، كتب ثقافيـة، القـاهرة ١٩٥٩.

٢٣- فارالاكو، إميل سيسيه، رواية غينية،الألف كتاب، القـاهرة ١٩٦٢.

٢٤- أنتيجون، جان آنوي، مسرحية (بالاشتراك مع ألفريد فرج)، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٣.

٢٥- مشروع الحياة، فرانسيس جانسـون، دراسـة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٧.

٢٦- ميديا، جان آنوي، مسرحية، مجلة المسرح، القاهرة ١٩٦٨.

٢٧- الوجه الآخـر لأمريكـا، ميكائيـل هـارنجتون، دراسـة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

٢٨- تشـريح جثـة الاسـتعمار، جـي دي بوشـير، دراسـة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

٢٩- الشوارع العارية، فاسكو براتـوليني، روايـة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٩ – دار إلياس العصرية، القاهرة ١٩٩١.

٣٠- نحو التحرر، هربرت ماركوز، دراسة، دار الآداب، بيروت ١٩٧٢.

٣١- حوريات البحر، قصص أمريكيـة، دار الهـلال، القـاهرة ١٩٧٩.

٣٢- الإسلام والاستعمار، روداف بيترز، دراسة، دار شـهدي، القاهرة ١٩٨٥.